الفصل الثاني:

مفهوم الجنون

مدخل: مفهوم الجنون.

المعاني المعجمية للجنون.

لفظة «الجنون» في الحياة العربية.

مفهوم الجنون في القرآن الكريم.

مفهوم الجنون في السنة النبوية.

الجنون فهم ثقافي/ المفارقة للنظام.

obeikandl.com

«**الجنـون**» في وجهـه الثقـافي توظيـفٌ متحيـزٌ لصالـح النمـوذج العالم/ المؤسـسي أيّـا كان مجـال حضـوره وفاعليته، بصفته: سـلاحاً لغويّاً، وموقفاً اجتماعيّاً، وتحيزاً معرفيّـا، يسـتبطن السـلطة لعـزل المخالف/ المتجـاوز/ المسـتغلق ونفيـه؛ خارج دائـرة العنايـة والاشـتغال؛ أكثر مـن كونـه وصفـاً حقيقيًّا لنقـص في الكفـاءة. فـ«الجنون» والـ«المجنـون» كلٌّ منهـما أداةٌ مركبـة تسـتبعد مـا لا يتفق مع السـياقات الرئيسـة والهيمنـة في الفضاءات السياسـية والاجتماعيـة والفكرية والسـلوكية. والعجيـب أن الثقافة العالمـة برموزهـا ومفاهيمهـا وخطاباتهـا الصاخبـة، هـي المخوّلـة بإنتاج الجنون! وهي في الوقت نفسـه تمارس عليه الهيمنة وتقصيه!

الباحث

obeikandl.com

مدخل: مفهوم الجنون

على الرغم من الصفحات العديدة التي سوداها في سبيل تحرير مفهوم العقل في التراث العربي؛ تظل محاولة تقديم مفهوم للجنون مهمة ليست باليسيرة؛ إذ ينبغي ألاَّ تندفع المقاربة إلى إغراءات التحديد، وتتناسى أنها بإزاء حالة تتحول فيها أية محاولة للتعرف إلى الجنون إلى (عقلنته)! وحبسه ضمن إطار ضيق، طالما سعى الجنون في تجلياته المختلفة؛ لاختراقه بكيفيات غير متناهية.

والأصوب -من جهة نظر الدّراسة- الاستجابة لطبيعة (الجنون) ومراعاة شرطه الوجودي، بمقاربة المفهوم ثقافيّاً عبر استقراءات حثيثة، لا تركن الدّراسة إليها في صورتها الجزئية المتناثرة كثيراً، بل تحاول جعل هذا الفيضان تدفقاً طبيعيًّا لا يبتلع حتمية الاعتماد على مفهوم واضح، ولا يئد طبيعة المصطلح الجامحة. التي تميل للانعتاق من الدوائر المحددة، وفي الوقت ذاته تستقري **المزاج الثقافي** في هذا النثار العجيب. مع التأكيد بأن محاولة تعريف شيء كـ(الجنون) صعوبة كبرى لما ينطوي عليه من تناقضات وإشكالات عديدة، لأسباب منها:

- نسبية مفهوم الجنون، فما يكون جنوناً عند جماعة، أو ثقافة، أو حقبة لا يكون كذلك في مكان أو ثقافة أو حقبة أخرى. وهذه إحدى خصوصيات الجنون، التي تجعل مقاربته تنطوي على متاعب ومصاعب جمة، حتى على الصعيد الطبي في أدقّ توصيفاته، فهو -أي: الجنون بصفته مرضاً- الوحيد بين الأمراض جميعاً الذي لا ترتسم خطوطه، ولا تبرز ملامحه في لقاء خالص مع الطبيعة! إنما تتأكد هويته داخل إطار ثقافي؛ إنه: **مرض لا معنى له إلا في إطار ثقافة ما** - كما وصفه فوكو في كتابه عن الشخصية والمرض العقلي[1].

---

(١) ينظر:

Michel Foucault، Maladie Mentale et Personnalite، Paris، P.U.F، 1954، p.p66-80

نقلاً عن: د. محمد علي الكردي، الجنون في الأدب الفرنسي، دراسة منشورة في مجلة عالم الفكر، العدد الأول، إبريل - مايو - يونيو ١٩٨٧م (ص٢٠).

يذكر معجم العلوم الإنسانية أنَّ الأمل بتصنيف الأمراض العقلية **تصنيفاً موحداً أمل لا رجاء منه**، وذلك لوجود نوع من التواصل بين المرض والحالة السوية، بحيث إن الحدود التي تفصل مرضاً ما عن حالة نفسية طبيعية هي حدود غير واضحة، ثم لأن دراسة أسباب الأمراض العقلية ليست واحدة وهي خاضعة للنقاش، ومن النادر أن نعرف الأشياء التي تتعلق بالأعراض، أو تتعلق بالمرض. وقد ظل السؤال مطروحاً «هل تعتبر الأمراض [العقلية] أمراضاً حقيقية، لا تظهر إلا في مناسبات معينة (تاريخية واجتماعية؟) أو هل يعتبر ذلك من صنع الطبيب العقلي، الذي يصنف الأعراض المختلفة ضمن فئة جديدة؟! وهل يعتبر ذلك نوعاً من اتخاذ المريض لنفسه صفة جنون سمع بها، ومعها يتماهى؟! أو أن الأمر كل ذلك دفعة واحدة؟!». معجم العلوم الإنسانية، إشراف: فرانسوا دورتييه، ترجمة: د. جورج كتورة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، لبنان - بيروت، ط١، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م (ص٩٨٣-٩٨٤).

• أننـا نتعامل مع مصطلح في غاية الالتباس والتعقيد، لتعدد مسـتويات اسـتخدامه، وتنـوع مجـالات دلالتـه؛ ذلك أنَّ الجنـون ألوان[١] - كما في منطـوق العبارة الـ(سـقراط)ـية الشهيرة، التي شاعت في التراث العربي شعراً ونثراً بمعناها «الجنـون فنـون»[٢]، فالجنـون وإن كان مصطلحاً واحداً في الظاهـر إلا أنـه يحيـل إلى شـبكة دلالية متعـددة في الذهن. وحـين نتحـدث عـن الجنـون فنحن حتـما لا نتحـدث عن مصطلح متجانس، ولا نشير إلى مشهد محدد أو نوع واحد، هذه الإشـكالية قد تكون إحدى تجليات الجنون، وأسباب ثرائه، ووسـائله الخفية في إيصـال خطابه. إذ إن «الجنون في الفـن الواحـد بين أهله ذو عرضٍ واسـع، وبحسـب ذلك يتفاوتون التفاوت الذي لا مطمعٍ في تحصيله، كما أنَّ العقل بـين أصحابـه ذو عرضٍ واسـع، وبقـدر ذلـك يتفاضلون

(١) ينظـر: عبد الرحمـن بـن الجـوزي، ذم الهـوى (ص٢٨١)، والسـراج القـاري، مصـارع العشـاق، دار صادر بـيروت، ط١، ت١٩٥٨م (١/ ١٥، ٦٠)، ومحمد ابـن جعفر الخرائطـي، اعتلال القلوب، تحقيق: حمدي الدّمـرداش، مكتبة الباز، السعودية - مكة المكرمة، ط١، ت١٤٢٠هـ (٢/ ٣٧٧).

(٢) ينظر مثلاً: عبد الملك الثعالبي، خاص الخاص، تقديم: حسن الأمين، دار مكتبة الحيـاة، لبنان - بـيروت، ط١، د. ت (ص٢٢٠)، ويتيمة الدهر في محاسـن أهل العـصر، تحقيـق: د. مفيد قميحـة، دار الكتـب العلمية، لبنان - بـيروت، ط١، ت١٤٠٣هـ-١٩٨٣م (٥/ ٢٥٧)، وعبد الوهاب السـبكي، طبقات الشـافعية الكـبرى، تحقيـق: عبد الفتاح الحلو ومحمـود محمد الطناحـي، دار إحياء الكتب العربية، ط١، ت١٣٩٦هـ-١٩٧٦م (٧/ ٨٢).

التفاضل الذي لا سبيل إلى حصره»- كما يقول أبو حيّان التوحيدي[١].

- قيام الجنون على: الفوضى والاضطراب، وعلى: الانفصام والتمرد، وغير ذلك مما يصعب أن نقرر له وصفاً جامعاً مانعاً؛ ما أدّى إلى اضطراب واسع في فهم الجنون ليس قصراً على الثقافة العربية، بل نجد ما هو أشد في الثقافات الأخرى؛ فالجنون في الحضارة الغربية قديماً يتمثل في تسلط قوى خارجية تسلب الإنسان استقلاليته وإرادته، وتجعله تجسيداً للشيطان أو الشر، أو محطّاً لقوى سماوية خيِّرة. ولكنه مع ابتداء عصر النهضة في أوروبا أخذ ينأى عن امتلاك الجسد، ويحاول النفاذ إلى عقل الإنسان ليسلبه نعمتي: الحرية والإرادة. وفي القرن الثامن عشر الميلادي يتحول الجنون إلى نوع من الجهل والضلالة يحرمان الإنسان من نور العقل ويحولان بينه وبين السلوك السوي. وهذا هو التصور الذي انتهى إلى حرمان المريض من حريته وحقوقه الشرعية[٢].

***

(١) أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، تحقيق: أحمد أمين وأحمد الزين، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر، لبنان - بيروت، مصورة عن طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر - القاهرة، د. ط.ت (٢/ ٢٠٤-٢٠٥).

(٢) ينظر: د. محمد علي الكردي، الجنون في الأدب الفرنسي، دراسة - مجلة عالم الفكر (ص٢٠).

المعاني المعجمية للجنون

أعتقد أن المدخل المعجمي أفضل المداخل لقراءة أوجه الدلالة للكلمة في إطار الثقافة العربية، ومن ثم نحاول إيجاد ذلك الرباط المفقود بين المعاني الجزئية، التي يشير إليها المعجم اللغوي والمعنى العام للجنون في الاستعمالات الثقافية المختلفة. وقد رجعت الدراسة في سبيل تقرير هذا الجانب إلى ستة عشر معجماً، وتجنباً للتكرار، وإثقال الحاشية بالإحالات الجزئية اكتفت الدّراسة في هذا المبحث بالإحالة العامة للمادة بالجزء والصفحة عند ذكر اسم الكتاب أولاً. وهذه المعاجم هي:

- معجم العين، للخليل بن أحمد الفراهيدي[١].
- معجم مقاييس اللغة، لأحمد بن فارس[٢].
- القاموس المحيط، لمجد الدين الفيروز آبادي[٣].

---

(١) ترتيب: أسعد الطيب، تحقيق: د. مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرّائي، مطبعة باقري، انتشارات اسوه، إيران - قم، ط١، ت١٤١٤هـ (١/ ٣٢٣-٣٢٤).

(٢) (١/ ٤٢١-٤٢٢)، مادة (ج.ن.ن).

(٣) ترتيب: طاهر الزاوي (١/ ٥٣٥، ٥٤٢-٥٤٤)، مادة (ج.ن.أ) (ج.ن.ن).

- معجم جمهرة اللغة، لمحمد بن دريد[١].
- المحكم والمحيط الأعظم لعلي بن سيده[٢].
- معجم المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني[٣].
- معجم الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية لإسماعيل الجوهري[٤].
- معجم أساس البلاغة، لجار الله الزمخشري[٥].
- العباب الزّاخر واللباب الفاخر، لرضيّ الدين الحسن الصاغاني[٦].
- معجم أسماء الأشياء، لأحمد بن مصطفى الدمشقي[٧].
- معجم الأفعال المتعِّدية بحرف، لموسى الأحمدي[٨].
- معجم الفرائد، لإبراهيم السّامرائي[٩].

---

(١) تحقيق: رمزي منير البعلبكي، دار العلم للملايين، لبنان - بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م (٢/ ١٠٠٣)، مادة (ج.ن.ن).
(٢) (٧/ ٢١١-٢١٩)، مادة (ج.ن.ن)
(٣) (ص٩٨-٩٩)، مادة (ج.ن.ن).
(٤) (٥/ ٢٠٩٢-٢٠٩٥)، مادة (ج.ن.ن).
(٥) (١/ ١٥٢-١٥٣)، مادة (ج.ن.ن).
(٦) تحقيق: د. فير محمد حسن، مطبعة المجمع العلمي العراقي، العراق - بغداد، ط١، ت١٣٩٨هـ-١٩٧٨م (١/ ٣٦-٣٧)، مادة (ج.ن.أ).
(٧) دار الفضيلة، مصر - القاهرة، ط١، د. ت (ص١٢٧-١٢٩).
(٨) (ص٣٨-٣٩).
(٩) مكتبة لبنان، لبنان - بيروت، ط١، ت١٤٠٤هـ-١٩٨٤م (ص٥٥-٥٦).

obeikandl.com

- لسان العرب، لمحمد بن منظور[١].

- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، لأحمد الفيومي[٢].

- معجم تاج العروس من جواهر القاموس، لمرتضى الزبيدي[٣].

- معجم ألفاظ القيم الأخلاقية وتطورها الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي والقرآن الكريم، لنوال زرزور[٤].

وباستقراء معاني المادة في المعاجم العربية نجدها تشير إلى المعاني التالية:

المعاني الجزئية:

١. السَّتر والتَّستُّر:

قال ابن فارس: «الجيم والنون أصل واحد، وهو السَّترُ والتَّستُّر»، فأصلُ الجَنِّ إذاً: سَترُ الشيء عن الحاسة، يقال: جَنَّ الشيء يجُنُّه جَنّاً فاجتَنَّ: أي: ستره فاستتر. وكل شيء سُتر عنك: فقد جُنَّ عنك. والجَنِينُ: كلُّ مستور، ومنه حقد جَنِينٌ، وضغنٌ جَنِينٌ: أي: مستور. والولد ما دام في بطن أُمِّه؛ فهو: جَنِينٌ، واجتَنَّ الولد في البطن، وأجَنَّته الحامل. والجَنّة: البستان ودار النعيم في الآخرة؛ من الاجتنان، وهو: الستر لتكاثف أشجارها وتظليلها

(١) (١٣/ ٩٢-١٠١)، مادة (ج.ن.ن).

(٢) (١/ ١١١-١١٢)، مادة (ج.ن.ن).

(٣) (٣٤/ ٣٦٤-٣٨٢)، مادة (ج.ن.ن).

(٤) مكتبة لبنان ناشرون، لبنان - بيروت، ط١، ت٢٠٠١م.

بالتفاف أغصانها، أو لاستتارها عن الناس في الدنيا، أو اسم مرة من مصدر: جَنَّهُ جَنّاً إذا ستره، وقيل: لا تكون الجَنَّة في كلام العرب إلا وفيها نخل وعنب، وإلا فهي حديقة.

والجَنَنُ بالفتح، والمُجنَأَةُ: حُفرَةُ القبر. وكل ما أجنّك فهو جَنَنٌ لك أيضاً. والجُنَنُ: جمع جُنّة، وهو ما استترتَ به، وأجننتُ الشيءَ في صدري: أكننته، واستَجَنَّ مِجَنَّةً: استتر بها، والمِجَنُّ والمِجَنَّةُ: التّرسُ، ووشاح المرأة، وخرقة تغطي من رأسها ما قَبَل ودَبَر، وما يُستجنّ به. والجَنانُ بالفتح: القلب؛ يقال: فلان ضعيف الجَنان أي: القلب، سمي بذلك لاستتاره في الصدر، وقيل: بل لوعيه الأشياء وجمعه لها، ويقال للروح: جَنانٌ ؛ وقيل: سميت الروح جَنَانٌ ؛ لأنَّ الجسم يجنّها، أي: يسترها. ويقال: ما عَلَيَّ جَنانٌ إلا ما تَرى، أي: ثوبٌ يواريني. والجُنُونُ: حَائِلٌ بين النفس والعقل، سمي به لأنه يغطي العقل؛ فيؤدي إلى زواله أو فساده، والمجنونَ: المغطى العقل. والعرب تعتقد أن مرض الجنون يكون وراءه قوى خفية من جِنٍّ وغيرهم، فكأنها تدخل إلى رأس المجنون وتسلبه عقله.

والمعاجم تنبه إلى فكرة لطيفة في هذا الصدد، هي: أن مادة (ج. ن. ن.) تشير إلى **الوقاية** أو **التوقي** بصفته أصلاً ملازماً **لعملية الستر** أو الاستتار، فالجُنَّة: الوقاية، وكل ما وقى فهو: جُنَّة، وفي الحديث: «الصوم جنة»، أي: يقي صاحبه ما يؤذيه من الشهوات، وفي الحديث أيضاً: «الإمام جُنَّةٌ»؛ لأنه يقي المأموم الزلل والسهو. وكل ما وقى

أو توقِّيَ به فهو: جُنَّة.

وتورد المعاجم أيضا صيغاً تشير بوضوح إلى **تصنع حالة الاستتار** على مستوى الجانب المعنوي لا الحسي، إذ تقول: تَجَنَّنَ، وتَجَانَنَ، وتَجَانَّ: أرى من نفسه أنه مجنون.

٢. كل ما لا تدركه الحاسة :

كل جوف لا تراه فهو: جَنَانٌ، ولا جِنَّ بكذا: أي: لا خفاء به. والجَانُّ: أبو الجن، خلق من نار ثم خلق منه نسله، كآدم بالنسبة للبشر، وقيل: اسم جمع كالجامل والباقر، والجِنَّة: جماعة من الجن، وهم: أجسام عاقلة خفية تغلب عليهم النارية أو الهوائية[١]، قادرة على التشكل بأشكال مختلفة، لها عقول وأفهام وقدرة على الأعمال الشاقة[٢]. سموا بـ(الجِنُّ) لأنهم غير مدرَكين بالحاسة، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧].

ولفظة الجِنِّ تقابل لفظة (الإنس) وهي: كل مأنوس إليه يُبصَر، قال الأزهري: «أصل: الإنس، والأَنَس، والإنسان، من الإيناس وهو الإبصار، ويقال: آنَستُه وأَنَستُه أي: أبصرته. وقيل للإنس: إِنسٌ لأنهم يُؤنَسُون أي: يبصرون»، وقال الواسطي: «سُمّي

(١) ينظر: أبو البقاء الكفوي، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، تحقيق: د. عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، لبنان – بيروت، ط٢، ت١٤١٩هـ-١٩٩٨م (ص٣٥٠-٣٥١).

(٢) ينظر: أبو البقاء الدميري، حياة الحيوان الكبرى، مطبعة البابي الحلبي، مصر – القاهرة، ط١، ١٣٧٦هـ-١٩٥٦م (١/ ٢٥٧).

الإنسيون: إنسيين لأنَّهم يُؤنَسُون، أي: يُرون. وسُمِّي الجِنُّ: جِنّاً؛ لأنهم مُجتَنُّون عن رؤية الناس، أي: متوارون».

لذلك أطلق القرآن الكريم لفظة الجِنَّة على الملائكة، إذ قال: ﴿وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات: ١٥٨]، يعني الملائكة، فالعرب يقولون إن الملائكة هم بنات الله -تعالى الله وتبارك- يقول الراغب الأصفهاني: «الجِنُّ يقال على وجهين: أحدهما للرُّوحَانيِّين المُستَتِرة عن الحواس كلها بإزاء الإنس، فعلى هذا تدخل فيه الملائكة والشياطين، فكل ملائكة جِنٌّ وليس كل جِنٍّ ملائكة».

٣. الظلمة والسواد:

الجَنانُ: الليلُ، ويقال: جِنُّ الليل، وجُنُونُه، وجَنَانُه: سواده، وشدّة ظلمته، وقيل: اختلاط ظلامه وادلهمامه. وجَنَّ عليه الليل وأجَنَّه: إذا أظلم عليه؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ [الأنعام: ٧٦]، وقول ابن الورد:

لَحَا اللهُ صُعلُوكاً إذَا جَنَّ ليلُهُ
مُصَافِي المُشَاشِ آلفاً كُلَّ مَجزَرِ(١)

ولعلَّ منه قولُهم عن المجنون : مَدعُوجٌ، وعنِ الجُنُونِ: الدعجاء؛

(١) ينظر: عبد الملك بن قريب الأصمعي، الأصمعيات، تحقيق: أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف، مصر - القاهرة، ط٧، ت١٤١٣هـ-١٩٩٣م (ص٤٥).

إذ الدَّعج: شدة السواد. وجِنُّ الناس وجَنانُهم: مُعظمهم، وقال ابن الأعرابي: جَنانُ الناس: جماعتهم وسوادهم.

٤. الانجذاب إلى الشيء والتعلق به :

جُـنَّ فلانٌ بكذا إذا أعجبه وتعلق به، وفي الأثر: «اللهم إني أعوذ بـك من جُنون العمل»، أي: الإعجاب به. ومنه قولهم: جُنَّ بها أي: تعلّـق بها؛ «والتعبير بالجنون عن كثرة اللهجِ بالشيء وفرط الميل إليه مستفيض»[١].

٥. حدثان الشيء وشِدَّته:

وجِنُّ الشـباب، وجِنُّ المرح: جدّتها ونشـاطهما، وجِنُّ كل شيء حدَثانه وأول شِدَّاته. وجُنَّ الذبابُ وجُنونه أي: كَثر صوته وترنمه. وجِـنُّ النبـت: زَهـرُه ونَـورُه، وجُـنَّ النبـتُ: غلظ واكتهـل، ونبتٌ مجنون: كثيف ملتفٌ تأزَّر بعضه في بعض، ونخلة مجنونة أي: شديدة الطـول. وقد تَجَنَّنَـت الأرضُ وجُنَّت جُنُوناً، وهـي مجنونةٌ إذا كانت معشـبةً لم يرعَهـا أحدٌ، وبات فلانٌ ضيف جِـنٍّ، أي: بمكانٍ خالٍ لا أنيـس به، ويقـال: كان ذلك في جِنِّ صِبَاهُ، أي: في حدَاثَته، وكذلك: جِـنُّ كلِّ شيءٍ أوّلُ ابتدَائِـه، يقال خُـذ الأمرَ بجِنّه، واتّـق الناقة فإنها بجِنّ ضراسَها أي: بحِدثَانِ نِتَاجِها.

(١) عبد القـادر البغـدادي، خزانـة الأدب ولـب لبـاب لسـان العـرب، تحقيـق: عبد السـلام هـارون، مكتبـة الخانجـي، مصر – القاهـرة، ط٤، ت١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م (١٠/ ١٧٨-١٧٩).

٦. الاضطرابُ والخِفَّةُ أو سرعة الحركة:

والجانُّ أيضاً ضرب من الحيات أكحل العين يضرب إلى الصفرة لا يـؤذي، يسـكن بيوت الناس، وقيـل لها جَانٌّ: تشـبيهاً له بالواحد مـن الجَانِّ، وهـو الجِنُّ، وجمعه جِنانٌ. ومنـه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا﴾ [النمـل: ١٠]، أي: تتحـرك كالحيـة، وقيـل: شبه خفة حركتها بحركة الشيطان. قال الشاعر يصف جداول الماء:

كأن بهـا مـن شـدة الجـري جنـة

وقد ألبسـتهن الرياح سلاسلا[1]

الدِّلالة المعجمية العامة:

هذا إحصاء موسـع بعـض الشيء بما نبهت إليـه المعاجم العربية بخصـوص مـادة (ج. ن. ن) وبناء على ما تقدم فـإنّ لفظة «**الجنون**» في المعجم العربي تحيل إلى معانٍ جزئية عديدة يمكن أن نكثفها جميعاً بالخـروج مـن المعاني الجزئيـة المتناثرة للتركيز على الـدلالات العامة المشـتركة، والتـي تنتقل إلى الاسـتخدام العـام في الحيـاة الاجتماعية والمعرفيـة جميعاً، حيـث تفقد تلك المعاني حضورهـا الجزئي لصالح تلـك الدلالات العامة. هذه الدلالات يمكن أن نكثفها في الثالوث الآتي:

١). الخفاء.

(١) جار الله الزمخشري، ربيع الأبرار ونصوص الأخبار (١/ ١٩٢).

obeikandl.com

٢). المغايرة.

٣). العنفوان.

فكل ما ذكره المعجم العربي يمكن إخضاعه لهذه الدِّلالات الرئيسة الرامزة. تارة تتقدّم دلالة **المغايرة** وتارة تتقدم دلالة **الخفاء** والعكس، إلا أن حضور كلٍّ منهما لا بدّ أن يكون **مرتبطاً** بحضور الآخر، ولا بدّ أن يكون **هذا الحضور قويّاً** في نفسه! وتلك القوة هي ما عبّرنا عنه في الدلالة الثالثة **بـ«العنفوان»**.

وبدون تلك القوة يتراجع وصف الجنون لصالح أوصافٍ أُخر من أوصاف **النبذ والإقصاء**. ولكن إذا تجاورت الدّلالات الثلاث فإنها ترسم منطقة الجنون في الثقافة العربية، التي تقبع -بطبيعة الحال- خارج قيد المأنوس: المتعارف عليه، والممارس، أو الوعي الذي عَقَلَهُ الإنسان ثم أنس إليه.

***

لفظة «الجنون» في الحياة العربية

إذا جاوزنا المعاجم اللغوية إلى النسيج **اللغوي الحيّ في الاستخدامات** اللغوية العامة، نستحضر من خلالها تنزيل الألفاظ على الأشياء، ودورانها في الحياة والموضوعات المختلفة، والتي تعكس المفاهيم الاجتماعية والثقافية: في التداول الحيِّ بعيداً عن توقع «التحكم» الدّلالي، والحديَّة في المعاجم؛ فإننا نجد الجنون جزءاً من الحياة، متغلغلاً ضمن نسيج التعاطي اليومي للمجتمع العربي، بحيث أصبح البحث عن مفهوم عام له يقود إلى تأمل الإنسان نفسه وعلاقته مع ما حوله.

ففي المروي عن العرب، وفيما جرى مجرى الطبع والسجية من كلام العلماء يسري الجنون **وصفاً** تجاه من **زال عقله** أو بعضه على وجه الحقيقة، سواء أكان ذلك بفعل تلبس الجن بالإنسان، الذي يكون بسبب السحر، أو العشق، أو العين...إلخ[1]، أم كان ذلك

(١) ينظر: الجاحظ، كتاب الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط٢، ت١٣٨٥هـ-١٩٦٥م (٦/ ١٩٥، ٢١٦-٢١٧)، ومحيي الدين النووي، تحرير ألفاظ التنبيه، تحقيق: عبد الغني الدقر، دار القلم، سوريا - دمشق، ط١، ت١٤٠٨هـ-١٩٨٨م (ص٤١)، ود. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جامعة بغداد، العراق - بغداد، ط٢، ت١٤١٣هـ-١٩٩٣م (٦/ ٧٠٨-٧١٣، ٧٢٣-٧٢٤، ٨٠٩-٨١٣).

بفعل آلهتهم -كما يعتقدون- فتغيِّب عقله، وتجعله مضطرباً متردداً منعزلاً. فقد كان الجاهليون يعتقدون أنها قد تتسلط على الإنسان إذا عرض لها بأذى أو غفل عن تأدية ما لها عليه من الحقوق. وكانوا قبل الإسلام يقدمون القرابين إلى آلهتهم لترضى عن المجنون وترفع ما نزل به[١]. وكانوا يلتمسون له الرقى والتعويذات، ويتعلقون التمائم أو الودع لطرد الجن ودفع أذيتهم عن الأفراد[٢]، وبعض هذه الممارسات يرافق العربي إلى اليوم.

وقد فطن العرب إلى أن سلوك الشخص وما يعرض له من حوادث طبيعية، أو نفسية، أو خلل عضوي قد يتسبب في إزالة عقله جزئياً أو كليّاً، لبعض الوقت ثم يفيق، أو دائماً مدى الحياة؛ ولذلك جعلوا دواءه بالطب العضوي بالأعشاب التي تعرفها أرض الجزيرة العربية، أو ببعض الأطعمة التي تصنع لذلك، ومنعوا المجنون من أطعمة ومآكل أُخر لأنها بزعمهم تورث الخبال والجنون[٣]، كما ربطوا بين المرض العضوي وبين الانحرافات التي تتعلق بالأفكار والتصورات من خلال الحديث على اختلال المخيلة واضطراب علاقة الإنسان بالخيال[٤].

(١) ينظر: د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (٦/ ١٨٠-١٨١، ١٨٣).
(٢) ينظر: د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (٦/ ٧٤٥-٧٤٦).
(٣) ينظر: د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (٨/ ٤٠٩-٤١١)، وينظر: د. أحمد الخصخوصي، الحمق والجنون في التراث العربي من الجاهلية إلى أواخر القرن الرابع، (الفصل الرابع، ص١٢٤-١٣٢).
(٤) ينظر: أبو البقاء الكفوي، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية (ص٣٤٩).

obeikandl.com

غـير أن الجنون كثيراً ما يتجاوز هذا **المعنى الأولي**، إلى دلالات أُخر أكثر في الاسـتعمال مـن هذا **المعنى المحـدّد**، إذ يطلق أيضـاً الجنون على كل شـخص أو عمـل اتصـف بصفات تجعلـه: **غير متوافـق مع محيطه الاجتماعي أو تجعل من فعله أو قوله أمراً غير متوقع**، (غير مقبول – غير سـائغ)، وإن كان الشـخص في ذاته عاقلاً، أو كان العمل صادراً عمّن عـرف بعقلـه وإدراكه؟! أي: بـأن يكون حالة من حالات النشـاز عن السياق الاجتماعي بما فيه من محترمات؛ فمثلاً عدوا من قبيل الجنون:

أن يكـون في سـلوك الأفـراد أو مقولهـم مـا يـشي بـشيءٍ مـن: الاضطـراب أو التناقـض، أو مخالفـة الصـورة المتوقعة منهـم[١]، أو بالـتردد الفاحـش بين القـوة والضعـف، أو العلـو والنـزول[٢]، أو بالغلـط في التقسـيم المنطقـي[٣]، أو بعـدم التمييـز بـين مـا يوصف

(١) «قـال يحيى بن أكثم: أدخلت علي بن عياش على المأمون؛ فتبسـم ثم بكى! فقال: يـا يحيى أدخلتَ عـليَّ مجنوناً؛ فقلتُ: أدخلتُ عليك خيرَ أهل الشـام، وأعلمهم بالحديـث، مـا خلا أبا المغيرة»، فقد قاس المأمون سـلوك ابن عياش على سـلوك المجانـين، لمـا رأى منه في الظاهر اضطراباً غير متوقع. أبو الحجاج المزي، تهذيب الكـمال، تحقيق: بشـار عواد معروف، مؤسسـة الرسـالة، لبنان – بيروت، ط١، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م (٢١/ ٨٤)، وشـمس الديـن الذهبـي، تذكـرة الحفـاظ، تحقيق: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي، دار الكتب العلمية، لبنان – بيروت، ط١، ١٣٧٤هـ، (ص٣٨٤-٣٨٥).

(٢) وصف المعتمد بن عباد بأنه: «مجنون الكلام، تارةً تبدو لك منه بلاغة قس، وتارة يلقـاك بعي باقل؛ تحريف كثير في المعاني، وإحالةٌ في الوضع، وغلطٌ في السـجع، وشرودٌ عن الطبع». أبو حيّان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة (١/ ٦١-٦٢).

(٣) سأل كيسان مستملي ابن الأنباري خلفاً الأحمر؛ فقال له: «يا أبا محرز! علقمة بن=

بالحسن أو بالقبح[١]، أو الإعراض عن اهتمامات الناس والجهل بها[٢]، أو بالانجذاب إلى الشيء انجذاباً مبالغاً فيه، والإعجاب به، سواء أكان ذلك المتعلَّق بهِ عملاً أو رأياً[٣]، أو غير ذلك كالعشق[٤] الذي يجعل صاحبه يتعلق بمحبوبته تعلقاً يشغله عن واجباته الاجتماعية، ويصرفه عن رؤية عيوب المعشوقة، ويلهيه عن سائر الحقوق سواها[٥]، أو بالغياب عمّا يحيط بالفرد في استغراق عميق من

= عبدة جاهلي أو من بني ضبة؟ فقال له خلف: يا مجنون صحِّح المسألة حتى يصحّ الجواب». أبو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر (٨/ ١٩٧).

(١) «الحاسد مجنون، لأنّه يحسد الحسن والقبيح!». الجاحظ، رسائل الجاحظ (١/ ٣٤٥).

(٢) «كان ابن أبي مالكٍ بالكوفة، وكان معتوهاً ذاهباً، لا يعرف ما الناس فيه». الحسن ابن إسماعيل الضراب، عقلاء المجانين والموسوسين، تحقيق: إبراهيم صالح، دار البشائر، سوريا – دمشق، ط١، ت١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م (ص٢٦).

(٣) في الأثر: «لو أصاب ابن آدم في كلِّ شيءٍ جُنَّ»، أي: أعجب بنفسه حتى يصير كالمجنون من شدة إعجابه. وفي الأثر الآخر: «اللهم إني أعوذ بك من جنون العمل»، أي: من الإعجاب به. المبارك بن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ٣٠٩).

(٤) عرَّف ابن سينا وغيره من الأطباء العرب العشق بأنه: «مرض وسواسي شبيه بالماليخوليا، يجلبه المرء إلى نفسه بتسلط فكرته على استحسان بعض الصور والشمائل، وقد تكون معه شهوة جماع وقد لا تكون».
محمد صديق خان، نشوة السكران من صهباء تذكار الغزلان، اعتنى بنشره: محمد الكتبي، المطبعة الرحمانية، مصر – القاهرة، ط١، ت ١٣٣٨هـ-١٩٢٠م (ص٤).

(٥) تسمي العرب العشقَ جنوناً، والعاشق مجنوناً، وتعدّ جنون الهوى جنون الجنون! قال عبد الله بن المعتز:

بي جنون الهوى، وما بي جنونٌ وجنون الهوى جنون الجنونِ

وحُكي عن الأصمعيّ أنه قال: لقد أكثر الناس في العشق، فما سمعت أوجز ولا أجملَ من قول أعرابية، وقد سئلت عن العشق؛ فقالت: «ذلٌّ وجنونٌ!».=

التفكير، أو بالذهول والشرود الذي يصرف الإنسان عما حوله[١]، أو بما يعرض للأفراد من الانقطاع عن العالم بالصرع أو الإغماء[٢].

وعدّو الحركة الكثيرة، والنشاط الزائد سواء كان ذلك في الإنسان أو في غيره من الجنون، كما قال الشاعر يصف سرعة تدفق الجداول بالماء:

كأن بها من شدة الجري جِنَّة
وقد ألبستهن الرياح سلاسلا[٣]

= شهاب الدين النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: د. مفيد قميحة ود. يوسف الطويل وآخرين، دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت، ط١، ت١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م (٢/ ١٤٢)، وعبد الرحمن بن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق: محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت، ط١، ت١٤١٢هـ-١٩٩٢م (١٣/ ٨٦).

(١) «ربما كان يأخذ سفيان [الثوري] في التفكر فينظر إليه الناظر فيقول: مجنون». أبو نعيم الأصفهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٦/ ٣٩٢).

(٢) من حديث أبي هريرة ﷺ: «لقد رأيتني وإني لأَخِرُّ فيما بين منبر رسول الله ﷺ وحجرة عائشة من الجوع مغشيا علي، فيجيء الجائي فيضع رجله على عنقي يرى أن بي الجنون، وما بي جنون وما هو إلا الجوع»، وفي الأثر: «كان يَخِرُّ رجال من قامتهم في الصلاة من الخصاصة، حتى يقول الأعراب: مجانين أو مجانون». المجانين: جمع تكسير لمجنون، وأما مجانون فشاذ، كما شذ شياطون في جمع شيطان. محمد بن سورة الترمذي، الجامع الصحيح (سنن الترمذي)، تحقيق: إبراهيم عوض، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر - القاهرة، ط١، ت١٣٨٢هـ-١٩٦٢م (٤/ ٥٨٣)، برقم (٢٣٦٧)، والمبارك بن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ٣٠٩).

(٣) ينظر: جار الله الزمخشري، ربيع الأبرار ونصوص الأخبار (١/ ١٩٢)، وعرض=

أو بأن تكون استجابات الفرد وردود أفعاله مبالغاً فيها، أو مندفعة، أو غير متوازنة؛ ولذلك وصفت بعض حالات الإنسان الطبيعية التي تنتابه من وقت لآخر بالجنون، كالغضب والغيرة والشهوة والخوف والجوع[1]، أو الطرب لدى بعض الناس. وقد وصف صاحب الإمتاع والمؤانسة ما يصيب ابن غيلان البزّاز إذا سمع غناء «بلور» وصفاً عجيباً؛ فقال: «**إنه إذا سمع هذا منها انقلبت حمالیق عينيه، وسقط**

= البغداديُّ لبيت رؤبة بن العجاج، في وصف حمار الوحش:

أحقب كالمحلج من طول القلق كأنه إذ راح مسلوس الشمق

فقال: «يقول: كانَ هذا الحمار الأحقب كالاً من كثرة حركته؛ فحين أرادَ الرجوع إلى مأواه نشط شوقاً إليه فكأنهُ: مجنون نشاط زالَ جنونه، ومريض شوق ذهب داؤه. والتعبير بالجنون عن كثرة اللهج بالشيء، وفرط الميل إليهِ مستفيض».

وقال الجاحظ معلقاً على قول الشاعر:

وداويةٍ سبسبٍ سملق من البيد تعزف جنّانُها

قطعتُ بعيرانةٍ كالفنيـ ـق يمرح في الآل شيطانُها

قال: «جمع في هذا البيت تثبيت عزيف الجن، وأنّ المراح والنشاط والخيلاء والغَرب هو شيطانها».

الجاحظ، الحيوان (٦/ ١٨٤)، وعبد القادر البغدادي، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب (١٠/ ١٧٨-١٧٩).

(١) قال سهل بن هرون ثلاثة يعودون الى أجن المجانين وان كانوا اعقل العقلاء: الغضبان، والغيران، والسكران...»، وفي رواية أخرى: «قال سهل بن هارون: ثلاثة من المجانين، وإن كانوا عقلاء: الغضبان، والغرثان والسكران».

الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، مصر - القاهرة، ط٧، ت١٤١٨هـ-١٩٩٨م، (٢/ ١٩٥)، الحسن اليوسي، زهر الأكم في الأمثال والحكم (٣/ ٦٥)، وينظر: د. أحمد الخصخوصي، الحمق والجنون في التراث العربي من الجاهلية إلى أواخر القرن الرابع (ص٤٧-٤٩).

مغشـياً عليه، وهـات الكافور..، ومـاء الورد..، ومن يقـرأ في أذنه آية الكرسي..، والمعوذتين..، ويُرقى: بهيا شراهيا»[١].

كما وصف بالجنون بعض مراحل الإنسان الفسيولوجية التي يجتازها في نموه كسنوات الصبا والشباب؛ فقيل: «**الشباب شعبة من الجنون**»[٢]، وكذلك يوصف بالجنون كل ما كان له صفة الغرابة والوحشية[٣].

وكل مـا كان متجـاوزاً (خارجـاً عـن حدود) الوصـف المعهود حسـناً أو قبحـاً، علوّاً أو ارتفاعاً[٤]، وكل سـلوك أو فعل جرى على

---

(١) أبـو حيان التوحيـدي (٣/ ١٦٦-١٦٧)، وهيا شراهيا: كلمـة عبرانية يرقى بها، وتعني: يا حي يا قيوم.
ينظر: محمد الأزهري، تهذيب اللغة (٦/ ٥٣)، ومحمد ابن منظور (١٣/ ٥٠٦)، مادة (ش.ر.هـ).

(٢) جاء في خطبة ابن مسعود المشهورة: «الشباب شعبة من الجنون»، قال الزمخشري: «والمعنى أن الشباب شَبيهٌ بطائف من الجُنون؛ لأنه يغلبُ العَقل بميل صاحبه إلى الشهوات غَلَبَةَ الجنون».
جار الله الزمخشري، الفائق في غريب الحديث (٢/ ٢٥١).

(٣) منه قول الشاعر:
ولقد نطقتُ قوافياً إنسِيَّة ولقد نطقتُ قوافيَ التَّجنِين
قال السكري: أراد الغريب الوحشي.
ينظـر: علي بن سـيده، المحكم والمحيط الأعظـم (٧/ ٢١٤)، ومحمد بن منظور، لسان العرب (١٣/ ٩٥).

(٤) من ذلك قول المقنع الكندي:
وفي الظّعائنِ والأحداجِ أملحُ مَن حَلَّ العراقَ وحلَّ الشامَ واليَمنَا
جنّيّةٌ من نساءِ الإنسِ أحسنُ مِن شمسِ النّهارِ وبدرِ اللّيلِ لو قُرِنَا
مكتومةُ الذكرِ عندي ما حييتُ لها وقد لعمري مللتُ الصّرمَ والحَزَنَا

غير المتوقع من صاحبه، أو عجز المتلقي عن فهمه؛ فإنه يمكن وصفه بالجنون[1]!

وقد ظهر لنا -فيما مضى- أن العقل ممارسة مرتهنة لقيم وأعراف وانتهاءً عمَّا يُعارضها، وكذلك يتبدى لنا الجنون في صورة **انتهاك لمحذورات أخلاقية أو عرفية** يجب احترامها، أو مجافاةٍ لمكارم وقيم مستقرَّة ومحترمة في العقد الاجتماعي يجب حفظها:

قال أبو شريح الكعبي: «من رآني ألاحي ختناً لي أفرشني كريمتَه، وأفرشته كريمتي؛ فأنا يومئذ مجنون فاكووا رأسي. ومن رأى لأبي شريح جدياً أو لبناً يباع في السوق فهو نهب. ومن رآني أجادل جاراً لي في لبنةٍ؛ فأنا مجنون فاكووا رأسي. قال: فاختبره جار له، يقال له: عجرفة؛ فأخذ من داره عشرة أذرع، فقالوا له:

= وقال الشنفرى:

فدَّقت وجلَّت واسبكرت وأكملت فلو جُنّ إنسان من الحسن جُنَّتِ

قال ثعلب: «يقال: إن الحسان تتبعهم الشياطين».

ينظر: الجاحظ، الحيوان (٦/ ١٨٦-١٨٧)، وأحمد بن يحيى ثعلب، مجالس ثعلب، تحقيق: عبد السلام هارون، دار المعارف، مصر - القاهرة، ط٢، ت١٣٧٥هـ-١٩٥٦م، ق٢/ (٨/ ٣٥٨).

(١) قال الجميح الأسدي:

أمست أمامةُ صمتاً ما تُكلِّمنا مجنونةٌ أم أحسَّت أهلَ خَرُّوبِ

استنكر خلق زوجته أُمامة ونشوزها، فهو يتساءل هل جنت أو أن أحداً من أهلها قد أفسدها.

ينظر: المفضل الضبي، المفضليات، تحقيق: أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف، ط٣، ت١٣٨٣هـ-١٩٦٣م (ص٣٤).

يـا أبا شريح إنه قد أخذ من دارك عـشرة أذرع، فقال: هو أعلم. قال: فرده عليه جاره بعدُ، ورجع إلى حقه»[(١)].

وكان حسين بن فَهُم يقول:

«أشـهدوا عليَّ بأنني منذ فعلت خلة من ثلاث خلال فأنا مجنون: إن شهدت عند الحاكم، أو حدثت العوام، أو قبلت الوديعة»[(٢)].

وكل مـا ليـس لـه: نهـج منضبـط، ونظـام مطـرد؛ يخرجانه من صـورة الاختـلاط والتداخـل، ويميزانه عـن غـيره ويوضحانه، أو يجمعان شتاته، ويؤلفان بين متنافره؛ يؤول إليهما في نظر الرائي؛ فهو حالـة من حـالات الجنون؛ ولـو كان هذا الشيء لا يعقـل على وجه

(١) سـليمان بـن أحمـد الطبري، المعجـم الكبـير، تحقيق: حمـدي عبد المجيد السـلفي، مكتبة الزهراء، العراق - الموصل، ط٢، ت١٤٠٤هـ-١٩٨٣م (٢٢ / ١٨١)، برقم (٤٧٤).

(٢) ياقوت الحموي، معجم الأدباء إرشـاد الأريب إلى معرفة الأديب (٣/ ١١٥٣)، ترجمـة رقم (٣٩٩)، والخطيب البغداداي، تاريخ مدينة السـلام (تاريخ بغداد)، تحقيق: د. بشـار عواد معـروف، دار الغرب الإسـلامي، لبنان - بيروت، ط١، ت١٤٢٢هـ-٢٠٠١م (٨/ ٦٥٧)، ترجمة: الحسين ابن فَهُم برقم (٤١٤٣).

والحسـين بـن فَهُم، مـن رواة الآثار والأخبار، سـمع عن كثـير؛ منهم: محمد بن سـلام الجمحي، وصـف بأنه عسر الروايـة متمنعاً إلا لمن أكثـر ملازمته، وأكثر ما كتبوه عنه على سـبيل المذاكرة، ومـمـن روى عنه أبو الفرج الأصفهاني. وصف في كتـب الأدب بأنـه: ثقـة عـدل، وفي كتـب الآثـار بأنـه ليـس بالقـويّ، تـوفي (ت٢٨٩هـ) وضبط اسـمه في المرجعين السـابقين فَهماً وهو خطـأ، وهو على= = التحقيـق فَهُم. ولذلك قصة. يراجع: ياقوت الحموي، معجم الأدباء إرشـاد الأريـب إلى معرفـة الأديـب (٣/ ١١٥٣)، والخطيب البغـداداي، تاريخ مدينة السـلام (تاريخ بغداد)، تحقيق: د. بشـار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي.

الحقيقـة، كالأداء الكتابي/ الخط، يُقال: «**خـط مجنون! لا يُدرَى ألفٌ أم نـونٌ**»[١]، أو كان معرفـة خالصة؛ فإذا آل أمره إلى البيان والانتظام في نظـام منضبـطٍ مطردٍ فهو «**عقل**»؛ فقد قيـل في وصف النحو: «**ما زال النحو مجنوناً حتى عقله ابن السراج بأصوله**»[٢].

وكل ما التبس على الناس، أو استغلق عليهم فهمه، أو جرى على غير ما هم عليه في هيئته أو قوله أو سيرته أو قدرته، فإنهم ينسبونه إلى الجنون؛ فمن ذلك وصفهم **لمقام النبوة بالجنون**، وللنبي ﷺ **بالمجنون**؛ لأنـه ينبئهم بما يجهلـون من الغيب، أو لأنه يقرر شريعة تخالف ما هم عليـه مـن عرف وإلـف. ومنه أيضـاً **وصفهم للشـاعر بالجنون**، لأنه يجري في أحواله وأقواله على غير ما عليه سائر الناس، أو لأن الطرب يستخفه والغضب يستفزه، أو لأنه ذو قدرات تأثيريّة عجيبة، أو لأنه يخلط بـين عالم الحقيقة وعوالم الخيال، أو لأنـه لا حدود لمدركاته ولا ضوابط لاسـتدلالاته. وهذا يقدم الإشـارة بشيء من السمات العامة

(١) عبد الملـك الثعالبي، سـحر البلاغـة وسر البراعة، ضبطه وشرحه: عبد السـلام الحـوفي، دار الكتـب العلميـة، لبنان - بـيروت، ط١، د. ت (ص٥٤)، ويُنظـر: كتابـه: لبـاب الآداب، تحقيق: أحمد حسـن لبـج، دار الكتـب العلمية، لبنان - بيروت، ط١، ت١٤١٧هـ-١٩٨٧م (ص٧٣).

(٢) ياقوت الحموي، معجم الأدباء: إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب (٦/ ٢٥٣٥)، وجلال الدين السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: محمد أبـو الفضل إبراهيـم، دار الفكر، لبنان - بـيروت، ط٢، ت١٣٩٩هـ-١٩٧٩م (١/ ١٠٩)، وصديـق بـن حسـن القنوجـي، أبجـد العلـوم: الـوشي المرقوم في بيـان أحوال العلـوم، دار الكتـب العلميـة، لبنان - بـيروت، ط١، ت١٩٨٠م (٣/ ٤٣).

للجنون، فهو المضطرب، والمخالف، والغريب، والشاذ، والمتردد بين أحوال متباينة. وهذه الأوصاف لا تتحقق إلا إذا جاءت في سياقات ثقافيّة مجللة بـ:

- الممارسة المطردة والانسجام الظاهري.

- والسلطة التي تُعيِّن «الكَونَ العاقل» بصفته نموذجاً للجودة- الفضيلة، وتلفظ ما خلافه إلى دائرة الجنون.

***

obeikandl.com

مفهوم الجنون في القرآن الكريم

جاءت صفة الجنون في عشرين آيةً في أربع عشرة سورة من القرآن الكريم[١]، هذا بعد تجاوز الآيات التي اختلف المفسرون في تأويلها فخرجها بعضهم على معنى غير الجنون، مثل قوله تعالى: ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ﴾ [القمر: ٢٤] وقوله: ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ﴾ [القمر: ٤٧]، فقد ساق أبو الحسن الماوردي في قوله: ﴿وَسُعُرٍ﴾ خمسة تأويلات، وهي: الجنون، والعناء، والافتراق، والتيه، ووقود النار[٢]. إلا أن ذلك التواتر لا

(١) ينظر: د. أحمد الخصخوصي، الحمق والجنون في التراث العربي (ص٦٠)، هامش رقم (١٥)، غير أنه لم يحص سوى ١٨ آية فحسب، والآيات بحسب إحصاء د. الخصخوصي، هي: الآية ١٨٤ من سورة الأعراف، والآية ٦ من سورة الحجر، والآيتان ٢٥، و٧٠ من سورة المؤمنون، والآية ٨ من سورة الفرقان، والآية ٢٧ من سورة الشعراء، والآيتان ٨، و٤٦ من سورة سبأ، والآية ٣٦ من سورة الصافات، والآية ١٤ من سورة الدخان، والآيتان ٣٩، و٥٢ من سورة الذاريات، والآية ٢٩ من سورة الطور، والآية ٩ من سورة القمر، والآيات ٢، و٦، و٥١ من سورة القلم، والآية ٢٢ من سورة التكوير.

(٢) ينظر: النّكت والعيون، تحقيق: السيد بن عبد المقصود، دار الكتب العلمية/ مؤسسة الكتب الثقافية، لبنان - بيروت، ط١، ت١٤١٢هـ-١٩٩٢م=

obeikandl.com

يعني أن الجنون «غدا من الموضوعات المركزية، التي تُطرق لذاتها فتتناول بالعرض والتحليل وتستقصى من جميع جوانبها ثم تقوم وتقيّد بالقيود وتضبط بالأحكام» -كما يقول الخصخوصي[1]- غير أننا نلحظ أن موضوع الجنون جاء في معرضين:

أحدهما: معرض الادعاء والاتهام؛ حكى فيه القرآن الكريم على ألسنة أعداء الرسل من أقوامهم أنهم رموهم بالجنون.

والمعرض الثاني: أتى فيه الجنون في سياق نفي هذه التهمة عن الرسل وتبرئتهم منها.

ولم ينفرد الرسول الكريم محمد ﷺ بهذه التهمة كما لم تكن قريشٌ بدعاً من الأمم في ذلك الاتهام، فقد اُتهم كل من نوح وموسى. والقرآن الكريم يذكر أن جميع الأمم المكذبة بدعوة الرسل، قد وصفت رسلها بمثل ذلك، حتى إنه ليخيل للسامع أنّ الأمم قد تواطأت على ذلك، وأن بعضهم أوصى بعضاً. وهو أمر يدعو إلى العجب والحيرة، ولاسيما أنَّ تلك الأمم لم يجمعها زمان ولا مكان واحد؛ فكيف تواصوا به واتفقوا عليه؟! لكن حين لم يجمعهم الزمان والمكان؛ جمعهم جميعاً تجاوز حدِّ الاعتدال والطغيان. والطغيان تجاوز الحدّ، ولا يكون الطغيان إلا مع القوة والنفوذ (= السلطة)! وكثيراً ما تغري القوة والنفوذ أصحابها والمنتفعين بهما بمدّ سلطتهم؛

= (٥/ ٤١٥). وينظر: إسماعيل الجوهري، الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية (٢/ ٦٨٤-٦٨٥)، ومحمد بن منظور، لسان العرب (٤/ ٣٦٥-٣٦٦).

(١) ينظر: د. أحمد الخصخوصي: الحمق والجنون إلى نهاية القرن الرابع الهجري (ص٦١).

عبر استقطاب الأشياء إلى النظام الذي يوفر لهم هذه السلطة ويسوغ هيمنتها؛ أو يدفعون به عنوة لابتلاع كل شيء، وتوسيع هيمنته إلى آفاق واسعة فيها تجاوز لاعتبارات الحرية وحقوق الآخرين، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ۝٥٣﴾ [الذاريات: ٥٢-٥٣].

والمجتمعات المكذّبة حين تصف الرسل بهذا فهي إنما تروم تقويض دعوتهم، وهدمها من أساسها؛ إذ النبوة تربط وجوب التكليف بـ(**العقل**) المدرك لمراد الله تعالى وتشريعه، والقادر على تنزيله في الواقع. وبما أن (**النبوة**) نفسها درجة عليا من درجات التلقي: فهماً وتكليفاً وتبليغاً؛ تحتاج إلى قوة البدن، وقوة النفس، وقوة الإرادة، وزيادة العلم، فإنَّ حاجتها إلى صحيح العقل آكد، ولذلك قرن القرآن الكريم بين **قوة السند** في تلقي الوحي عن الله **بنفي الجنون** عن النبي محمد ﷺ في سياق واحد، فقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ۝٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ۝٢١ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ۝٢٢ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ۝٢٤ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ۝٢٥ فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ۝٢٦ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٧ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾ [التكوير: ١٩-٢٩].

قال الشيخ عطية محمد سالم[1]:

(١) الشيخ عطية محمد سالم: من كبار تلاميذ الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، ومن

«كان القرآن الذي جاء به مصوناً من أن يتسلط أحد عليه فيغيره، ومن أن يغيره الذي جاء به، وهذا كله بمثابة الترجمة لسند تلقي القرآن الكريم. وقوله: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ بيان لتتمة السند، حيث قال: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ فنفى عنه ﷺ نقص التلقي بنفي آفة الجنون، فهو في كمال العقل وقوة الإدراك، ومن قبل أثبت له كمال الخلق: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾. وأثبت له اللقيا، فلم يلتبس عليه جبريل بغيره، وهي أعلى درجات السند، فاجتمع له ﷺ الكمال الخلقي والكمال الخلقي- بضم الخاء وكسرها- أي: الكمال حسّاً ومعنى، ثم نفى عنه التهمة بأن يضن بشيء مما أرسل به مع نفاسته، وعلو منزلته، وجليل علومه، وأنه كلام رب العالمين... وإلا فأين تذهبون؟! أين تسيرون عنه، بعد أن ثبت لكم سنده ومصدره؟. ونظير هذا السند في تمجيد القرآن وإثبات إتيانه من الله، قوله تعالى في أول سورة النجم: ﴿ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾﴾»[1].

أعلام المدرسين بالمسجد النبوي، وله حلقة معروفة باسمه، ممن جمع بين علوم: الأصول والفقه والحديث والتفسير والسيرة واللغة. أكمل تفسير أضواء البيان لشيخه الشنقيطي، توفي عام ١٤٢٠هـ.

(١) مما كتبه الشيخ عطية محمد سالم تتمّةً على كتاب أضواء البيان في إيضاح القرآن= = بالقرآن للشيخ محمد الأمين الشنقيطي، نشر ملحقاً بكتاب أضواء البيان، د. ن، ط٢، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م (٩/ ٧٤-٧٦).

وبما أن النبوة صلةٌ بإله يشرع وبلاغٌ عنه؛ فإن اتهام الأنبياء بالجنون، يحمل في ذاته رفضاً لكون الوحي من جهة عليا سماوية، لها الحق في أن تقول؛ فتهدم، وتُغيِّر، وتشرِّعَ، وتعيد بناء الحقيقة في المجتمع، وصياغة نظمه، ومعارفه وتعيين مصادرها. ووصفُ النبوة بالجنون يقصرها على كونها هذاءات وضلالات، أو وحياً داخليّاً لاحقيقة له، أو حديثاً داخليّاً مصطنعاً في أسهل الأوصاف. وهذا يقتضي الطعن في الحقائق التي جاءت بها. فالقدح في كمال العقل: قدح في الخبر، كما هو قدح في التلقي نفسه، وإلغاء للنبوة..

ولعلّ ما سوّغ هذا الاتهام وجعله مقبولا لدى كثير من الناس- على الرغم من أن كلام المجانين وسلوكهم مضطرب؛ أو بعبارة العراف اليماني: «إن كلام المجانين متفاوت غير مستقيم، وما يشبه ابن أخيك المجانين بوجه من الوجوه»[1]- أن الأنبياء عليهم السلام خالفوا مجتمعاتهم في عاداتهم، «والمجنون عند الناس من يسمع ويسب ويرمي ويخرق الثوب، أو من يخالفهم في عاداتهم فيجيء بما ينكرون، ولذلك سمت الأمم الرسلَ مجانين لأنهم شقوا عصاهم فنابذوهم وأتوا بخلاف ما هم فيه»[2]. قال ابن القيم: «وأكثر الخلق إنما يكونون من الجانب الآخر ولاسيما إذا قويت الرغبة والرهبة، فهناك لا تكاد تجد أحداً في الجانب الذي فيه الله ورسوله بل **يعده الناس ناقص العقل** سيء الاختيار لنفسه، وربما **نسبوه إلى الجنون**.

(١) أبو القاسم بن حبيب النيسابوري، عقلاء المجانين (ص٣٤).
(٢) أبو القاسم بن حبيب النيسابوري، عقلاء المجانين (ص٣٠).

obeikandl.com

وذلك من مواريث أعداء الرسل فإنهم نسبوهم إلى الجنون لما كانوا في شق وجانب، وكان الناس جميعاً في شق وجانب»[١].

فالأنبياء -عليهم السلام-، عند أعدائهم -ضعفاء العقول: انحرفوا عن حدِّ الاستواء المعروف في مجتمعاتهم، الذي ينبغي أن يُؤثر، واختاروا ما لا يُختار، ورغبوا إلى ما لا يُرغب فيه. وهنا تتداخل الصورتان: المرضية للجنون والصورة الاجتماعية- الثقافية، وتلتبسان، فتأخذ الثانية أحكام الأولى وتسقط صفات الأولى على الثانية!

وتأمل ما يحكيه القرآن الكريم عن اضطراب الأمم في وصف الرسل يؤكد هذا الفهم؛ إذ يشير إلى اعتراف كبرائهم وسادتهم بوجود قدرات غير عادية لدى هؤلاء (الأنبياء عليهم السلام) **تؤثر وتغير!** واجتهدوا في الكشف عن أسبابها من خلال خبراتهم ومعارفهم، التي تحفظ عليهم **أنظمتهم ومكاسبهم**. فخرّجوها على ما ألفه الناس من وجوه تصرف عن اعتقاد النبوة، فالآية- نفسها- تخبر عن انقسام الأمم حيال وصف المرسلين إلى وصفين: فتارة تصفهم بالسحر، وتارة تصفهم بالجنون! وذلك ينبئ عن رؤية ذات مستويين لواقعة النبوة والأنبياء، تستشعرها تلك الأمم تجاه النبوة وخطابها:

في أحد المستويات: ترمق النبي نفسه وأقواله وسلوكه، وما

(١) كتاب الفوائد، تحقيق: محمد عزيز شمس، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، السعودية - مكة المكرمة، ط١، ت١٤٢٩هـ-٢٠٠٩م (ص١٦٧).

يبـث مـن قيم، وما يُشرِّع مـن دين (**خطاب النبـوة**)؛ فجاء الوصف بـ«**الجنون**» مطابقاً لمستوى النظر- بحسب زعمهم ...

وفي الآخـر: تهتـم بقـدرات الأنبيـاء ونتائجهـا (**أثـر الخطـاب النبوي**)، فجاء وصف النبوة بالسـحر والنبي بالسـاحر. والسـحر: اسـم لما خفي سببه، وصعب اسـتنباطه على أكثر العقول. وحقيقته: التأثير في الناس على نحوٍ خفي؛ فيسحر العقول، وتنقاد إليه النفوس بخدعـة وتعجـب واستحسـان، فتميـل إلى الإصغـاء إلى الأقـوال والأفعال الصادرة عن الساحر[1].

ولـو رجعنـا إلى سـياق الخصومـة بـين الأنبيـاء عليهم السـلام ومجتمعاتهـم في القـرآن الكريـم، لألفينا القرآن الكريم يسـوق تهمة الجنون من خلال مستويين:

الأول: مستوى التهمة مجرّدة.

الثاني: مستوى التهمة مقترنة بإحدى الصفات: (شاعر - ساحر- كاهـن- مُعلَّـم)، بالإضافـة إلى اتهامـات أخـر جـاءت غـير مقترنة بالجنون، لكنها صفات لا يمكن إغفالها لصلتها بالسياق نفسه الذي جـاء فيه اسـتخدام الجنون، وهو سـياق نبز الأنبيـاء ووصف النبوة مـن قبل الأمـم المكذبة، وهذه الأوصـاف: (كاذب - كذّاب - أشر

(١) ينظر تعريف السـحر: حاجي خليفة: كشـف الظنون عن أسـامي الكتب والفنون، دار إحيـاء الـتراث العـربي، لبنان - بـيروت، ط١، د. ت. (٢/ ٩٨٠)، وصديـق حسن القونوجي: أبجد العلوم: الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم (٢/ ٣١٨).

obeikandl.com

- يُعلمه بشر - اكتتب أساطير الأولين - أعانه عليه قوم آخرون).

وإذا قدّم ذلك الدليلَ بأن النبوة لم تكن شيئاً واضحاً -بادئ الأمر- عند الأمم المكذبة، ومنهم العرب، ما جعلهم يضطربون فيها، كما وصف القرآن الكريم[١]، فإن ورود الجنون ضمن هذا السياق من الأوصاف- وهي جميعاً صفات لأناس **ذوي قدرات غير عادية** في نظر تلك المجتمعات التي تلقت الوحي ابتداء- يؤكد ما ذكرناه آنفاً؛ لأنه يدلُ على أننا بإزاء جنون أزعج تلك المجتمعات واستنفر قواها لمناهضته[٢]، وليس هو بالجنون السلبي: الصامت، المنعزل: الغارق في أفكاره.

هذه الأوصاف المتباينة: أوصاف تتنافى -ولا شك- مع دلالة الجنون السلبية، التي تكاد تستغرق تصورنا السائد اليوم، لكنه ليس كذلك بالنسبة لتصور العرب الجاهليين؛ وهو تصور غير بريء من نسبة شيء من القدرة الخارقة والدهاء إلى المجنون. فالجنون -بحسب ما يحكي القرآن عنه- حالة **اختلاف ثقافي** مشتمل على مصادر معرفيّة خاصة تصنعه في حالة من القدرة، والقوة المتمردة، المخالفة للناس، المتعالية على الفهم، القاهرة المؤثرة؛ سواء استمدها من ذاته، أو من قوم يعينونه، أو من معلِّمٍ، أو من أثارةٍ من علم، أو

(١) قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [ق: ٥]، ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ [الذاريات: ٨]، ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ [النبأ: ٣].

(٢) مما حكاه القرآن الكريم عن مشركي العرب في هذا الصدد، قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

من رئيه من الجنّ الذي يوسوس له، فهو:

- ذو قول مسكون بالغواية وتداخل الحقيقي بالمتخيل، مسكونٍ بالجمال حدّ استلاب عقول السامعين العقلاء.

(شاعر)

- ذو قوة وسلطة خفية تغيّر؛ تجمع وتفرق، وتؤثر في الأشياء، وتقلب الحقائق رأساً على عقب، وتصنع عالماً عجيباً، دون منطق معروف.

(ساحر)

- ذو علم خارق بالمغيبات والخوافي والبواطن؛ لوجود من يمدّه من القوى الخفية، وهو ذو سلطة على ضمائر البشر، وفضح أسرارهم.

(كاهن)

- ذو قدرة زائدة على تغيير الوقائع واختراع العلاقات.

(كذّاب)

- ذو مدد خارجي أو داخلي، يستمدّ قصصه وأخباره من: رئيٍ يعرض له، أو يستمدها من أساطير الأولين التي تملى عليه بكرةً وعشيّاً، أو من بشرٍ يعينونه على ما يقول، أو أنَّ هناك من يُعلِّمه.

(معلم مجنون – يعلمه بشر – وأعانه عليه قومٌ آخرون – أساطير الأولين اكتتبها)

- ذو قوة وقدرة يسخرها في صرف الناس عمّا يعتقدون، وتغيير

obeikandl.com

ما يحترمونه من القيم.

(أَشِر)

فالجنون الذي يرمى به الرسل إذن -ومنهم محمد ﷺ- **جنون ذو قدرة على الفعل! له حضوره المؤثر، وخطابه المضاد** المخالف لماهم عليه؛ مما سوّغ لهم وصفه **بالأشر**(١)، وليس -كما قد نتوهمه- تهمة مجردة من دلالات الغرابة المنطوية في ذاتها على قوة وقدرة، وقهر وسلطان؛ ولو نافت في نوعها نوع النبوة. ولذلك ينبغي أن تعزل تلك القدرات الغريبة وتمنع من تغيير الواقع، عن طريق حصرها في/ ربطها بـ **(الجنون)، أو نبذها إليه لأنها برغم ما تنطوي عليه من قدرة وإبهار خارج إيقاع النظام المستقر.**

وبسبب من ذلك وجدنا القرآن الكريم يعرض لمسألة تقرير القدرات العقلية للنبي محمدٍ ﷺ من خلال تقرير أمرين أذهان

(١) جاء هذا الوصف في حق نبي الله نوح، وهو ممن وصف بالجنون وازدجر، أي: منع وحجز؛ قال الله تعالى: ﴿أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾﴾ [القمر: ٢٥-٢٦]. وقد جاء في بعض الآثار ما يؤكد اقتران الجنون بصفة الشر، ومنه ما رُوي عن أُم سلمة رضي الله عنها أنها قالت: حدثتني أُم ابن صائد: أنها ولدته ممسوخاً مجنوناً مشروراً..». وإنما يوصف الشيء بالشر حينما يكون مضاداً لما يعتقده الإنسان من قيم خيرة؛ والشر بمعناه الأخلاقي: «يقال لما يكون موضع استهجان، أو ما يكون موضع رفض من الإرادة».
عمر بن شبة النميري، تاريخ المدينة المنورة، تحقيق: محمد فهيم شلتوت، طبع= = على نفقة: حبيب محمود أحمد، السعودية - المدينة المنورة، ط١، ت١٣٩٩هـ (٢/ ٤٠٢)، ومجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الفلسفي (ص١٠٢)، ومراد وهبة، المعجم الفلسفي (ص٣٨٥).

المتلقين، يضادان ما يشيع من وصف المكذّبين له بالجنون، وهما:

- الإشـادة بخلقه العظيم، قال تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم: ٢-٤]، لأنَّ: «الأخلاق الحميدة والأفعال المرضية كانت ظاهرة منه، ومن كان موصوفاً بتلك الأخلاق والأفعال لم يجز إضافة الجنون إليه»[(١)]. وقد تقدّم أنَّ ابن جزي جعل من لوازم خطاب الله تعالى للنبـي ﷺ بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] الشهادة له بـ: «وفورة العقل وصحة الفهم»[(٢)].
- تزكية ما تكتنزه دعوته (**النبوة**) من فضيلة وصدق، من خلال ربطها بسـياق آخر غير ما يُجِلُّ المكذبون وغير ما يعتقدون (= غير سياق النظام الذي يحكمهم)؛ فوصفها بأنها:
  - من حيث هي في ذاتها: دعوة جاءت بالحق[(٣)].
  - وأن النبي محمداً ﷺ لم يكن بدعاً من الرسل (شاذّاً فيما يدعو إليه)، بل جاء مصدِّقاً لما بين يديه من النبوات والأنبياء[(٤)].

---

(١) محمـد الـرازي، التفسـير الكبـير: مفاتيح الغيـب، دار الفكـر للنـشر والتوزيع، لبنان - بيروت، ط١، ت١٤٠١هـ-١٩٨١م (١٣/ ٨٠).

(٢) محمد بن جزي الكلبي، التسهيل لعلوم التنزيل (٢/ ٤٧٢).

(٣) قـال تعالى: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافـات: ٣٧]، ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٠].

(٤) قـال تعـالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأحقاف: ٩].

ومـن ثمّ فهو في نفسـه ﷺ وفي سـلوكه، وفي علاقتـه بمجتمعه: عاقـل تام العقـل؛ لأنه: على خلـق عظيم، ولأنـه في دعوته وخطابه ليـس مبتدعاً حياة جديدة ولا قيماً مسـتحدثةً، بل هو نبيٌّ بين أنبياء، يحمـل الحقّ والهـدى، ويروم -بإذن ربـه- إرجـاع المجتمعات التي انحرفت عن الجادّة إلى استوائها السابق على الصراط المستقيم.

ولخطـورة هذا الوجـود المتمرد **(النبوة)** على الأنسـاق المتحكمة في إنتـاج القيمـة والحقيقـة ومن ثم سـيرورة الحيـاة الثقافية بشـكل عامـل في المجتمـع آنذاك؛ فإن تشـتيت الانتباه عـن متابعته، وإحالة خطابـه إلى اللغـو والعبث[1]، وحصره داخل **(الجنـون)**، يمثل الحل الثقـافي الأنسـب لتلـك المجتمعات الرافضـة والخائفـة- في الوقت نفسـه- عـلى أنظمتهـا، لأن الجنون -من جهـة- **يسـقط عدالة** هذا الوجـود المتمـرد عليهـا- ومن جهة أخـرى- **يكفيهـا مؤونة الجدل والـرد**. وهمـا غير مأمونـين دائماً ولا سـيما حين يكونـان في مواجهة مكشـوفة للناس مع من يوصف -بحسـب ما يروجـون- بقدرات كبرى، فهو يجمع بين بلاغة الشعراء، وعلم المعلَّمين، ورئي الكهان، وتمويـه السـحرة وتأثيرهم[2]، ومـا ذاك إلا لأنهم- برغـم مخالفتهم

(١) ممـا حكاه القرآن الكريم عن مشركي العـرب في هذا الصدد، قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]. وكان النّـضر ابـن الحارث يجمـع الناس ويصرفهـم عن اسـتماع القرآن يحدثهم مـن أحاديث الفرس والحبش.

(٢) المعـرض هنا معـرض اعتقاد المجتمعات الرافضة للنبـوة والخائفة من خطابها،= = ومعرض ما يودون إشـاعته عن الأنبياء. والأنبياء عليهم السـلام بريئون من

للقيم حولهم- يملكون منطقاً متكاملاً جديراً بالتأمل بل الاتباع. ولذلك نبه القرآن الكريم إلى **سطوة الجماعة** على الأفراد فدعا نبيه إلى أن يدعوهم إلى التفكير خارج سياق هيمنة سادتهم وكبرائهم، وخارج سلطة النظام الذي يدفعهم دفعاً إلى الإعراض عن الحقّ؛ ولو كان في متناول أيديهم، وهذا يكون بالخروج على سياق التفكير الجماعي الذي (**يعقلُ المعرفة**) في الأنظمة الاجتماعية إلى حالة الفردية والاستقلال؛ حيث يستطيع الفرد أن يبحث عن علاقات جديدة، ويقف على الحقيقة المغيبة بفعل سلطة التفكير السائد. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

***

هذه التهم، وهم مؤيدون بقدرة تفوق قدرة هذه النماذج البشرية غير العادية.

obeikandl.com

مفهوم الجنون في السنة النبوية

في السنة النبوية يستخدم الجنون للدلالة على معنيين:

الأول: ضد العقل التكليفي؛ أي: المتصل بوجوب التكليف، وهو: التمييز الذي يعرف به الإنسان معنى الأمر والنهي ويفترق به عن الحيوان[١]. حيث يدل الجنون على غياب القدرة العقلية التي يكون بها الإنسان قادراً على فهم الشرع، ومعرفة الأمر والنهي، وتحصل به الإرادة للفعل (= النية). وفي هذا المعنى جاء الحديث المشهور: «رُفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ، وعن الصغير حتى يكبر، وعن المجنون حتى يَعقِل أو يفيق»[٢].

فالجنون بهذا المعنى مانع من موانع التكليف، لانتفاء القدرة على الفهم، والإرادة على جهة القصد؛ الذي يرجو به الإنسانُ وجهَ الله

(١) ينظر: مرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس (٣٠/ ١٨-١٩).

(٢) محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجة، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي، مصر - القاهرة، ط١، ت١٣٧٢هـ-١٩٥٢م (١/ ٦٥٨)، برقم (٢٠٤١). وأحمد بن شعيب النّسائي، السنن الكبرى، تحقيق: حسن شلبي، مؤسسة الرسالة، لبنان - بيروت، ط١، ت١٤٢١هـ-٢٠٠١م (٥/ ٢٦٥)، برقم (٥٥٩٦).

وثوابـه، فإنّ الأعمال العباديـة مرهونة بالنية، وهي إرادة رضوان الله وثوابه. وهو ما يمكن فهمه من قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لـكل امرئ ما نوى»[١]. لانَّ مـن شروط التكليف أن يكون المكلف قـادراً على فهم النص الشرعـي، وهو خطاب «وخطاب من لا عقل لـه ولا فهم محال. والقدرة على الفهم تكـون بالعقل؛ لأن العقل هو أداة الفهم والإدراك، وبه يمكن الامتثال»[٢].

ولـو تأملنـا الحديـث الذي استشـهدنا بـه آنفـاً لوجدنـا ارتفاع التكليـف والمؤاخـذة الشرعيـة مرتبطـاً بعلـل ثـلاث، هـي: النوم، والصِّغـر، والجنون، وكل هذه العلل تشـترك في كونها غياباً للعقل؛ وإن تفاوتت في علاقتها بالإنسان.

وإذا توسـعنا أكثـر في فهم تلك الصور وجدنـا المؤاخذة ترتفع عـن صور أخرى تتصل بشـكل أو بآخر بمسـتوى من مسـتويات غياب العقل، وهي: الجهل، والنسـيان، وما استكره الإنسان عليه مـن فعـل أو قول أو صمت، كـما جاء في الحديـث الشريف[٣]. كما

(١) محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع المسند الصحيح (صحيح البخاري)، بإشراف: محمد زهير الناصر (طبعة مصورة عن النسخة الأميرية المطبوعة ببولاق) (١/ ٣).

(٢) د. وهبة الزحيلي، الوسيط في أصول الفقه الإسلامي، دار الفكر، سوريا - دمشق، ط٢، ت١٣٨٨هـ-١٩٦٩م (ص١٦٥)، وينظر: د. أحمد الخصخوصي، الحمق والجنون في التراث العربي من الجاهلية إلى أواخر القرن الرابع (ص٦٩).

(٣) قال النبي ﷺ: «تجاوز الله عن أُمتي الخطأَ والنسيانَ وما استكرهوا عليه». الحاكم النيسـابوري، المسـتدرك على الصحيحين، دار الحرمين للطباعة والنشر، مصر - القاهرة، ط١، ت١٤١٧هـ-١٩٩٧م (٢/ ٢٣٦)، برقم (٢٨٦٠)،=

أنـه لا قبول من حيـث المجازاة الشرعية والثواب لعمل بلا نيّة ولو كان صوابـاً، لعـدم تحقـق المقصديـة فيـه. لأنّ إدراك معنـى الفعل ومقصديتـه، وارتبـاط وقوعه بإرادة ذاتية واعيـة، على وجه معين، وغاية محددة، حالة من حالات **العقل**، وغيابها غياب عن مسـتوى من مستوياته.

أمَّـا المعنى الثـاني للجنون؛ فهـو: أقرب إلى المعنـى الذي ورد في القـرآن الكريم آنفاً، تبرزه/ تصنعه الثقافة، ويتمثل ذلك في الحديثين النبويين التاليين، وهما:

- **روى أنـس بـن مالك وأبو هريرة رضي الله عنهما قـالا: «بينما النبي ﷺ جالـس في أصحابه، إذ مر رجل فقال بعض القوم: مجنون؛ فقال النبي ﷺ: إنما المجنون المقيم على المعصية، ولكن هذا رجل مصاب»**[1].
- **وروي: «أنَّـه ﷺ رَأى قومـاً مُجتَمعـين على إنسَـان، فقال ما**

= ومحمد بن حبان البستي، صحيح ابن حبّان بترتيب ابن بلبان، تحقيق وتعليق: شـعيب الأرنـاؤوط، مؤسسـة الرسـالة، لبنان - بـيروت، ط١، ت١٤١٢هـ-١٩٩١م (١٦/ ٢٠٢)، برقـم (٧٢١٩)، علـق المحقـق: الشـيخ شـعيب عـلى الحديث، فقال: «إسناده صحيح على شرط البخاري».

(١) عـلي بن عسـاكر، تاريـخ مدينة دمشـق، تحقيق: عمر بـن غرامة العمـروي، دار الفكـر، لبنان - بـيروت، ط١، ت١٤١٦هـ-١٩٩٦م (٤٠/ ١٥٩)، والمتقـي الهنـدي، كنز العمال في سـنن الأقوال والأفعال، ضبـط وتصحيح: بكري حياني وصفوة السقا، مؤسسة الرسـالة، لبنان - بيروت، ط٥، ت١٤٠٥هـ-١٩٨٥م (٤/ ٢٦٥)، ٢٧٠ برقم (١٠٤٣٧، ١٠٤٥٣).

هذا؛ فقالوا: مَجنُون. قال: هذا مُصَاب! وإنما المَجنُونُ الذي يَضرِب بِمَنكِبَيه، ويَنظُرُ في عِطفَيه، ويَتَمطَّى في مِشيَتِه»[١].

ففي الحديثين النبويين ينتفي حضور الجنون اسماً دالٍّ على المرض العقلي ويحل محله اسم «مصاب»[٢] -ووصف «مصاب» ألصق في الدلالة على المرض العقلي من الجنون[٣]- ويُحصر الجنون في مفهوم ذهنيٍّ تصنعه الثقافة فحسب. وهذا المعنى -برغم تحديده الظاهر- ذو طبيعة إشكالية إذ **ينفتح على التأويل**، بحسب تَكَوّن المعرفة وتراكماتها، وما يتصل بها من زمان ومكان، وبحسب الموقع الذي يتمّ من خلاله تلقي ما يوصف بالجنون. مما يجعل من الحمولات الدلالية للجنون **واسعة ومتحررة ومتحركة**، شأن النشاطات

(١) المبارك بن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ٣٠٩)، ومحمد بن منظور، لسان العرب (١٣/ ٩٧)، مادة (ج.ن.ن).

(٢) المصاب: من أصابته مصيبة، فلعله قيل: لمن في عقله فترة وضعف مصاب، والصابة: اسم من الإصابة كالجابة والإجابة، والصيبة: الهيئة من صاب الشيء يصوب إذا نزل من علو إلى سفل.
ينظر: محمد الجياني، إكمال الإعلام بتثليث الكلام، تحقيق: سعد بن حمدان الغامدي، جامعة أم القرى، السعودية - مكة، ط١، ت١٤٠٤هـ-١٩٨٤م (٢/ ٣٧٠)، وإسماعيل الجوهري، الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية (١/ ١٦٥)، وعلي بن سيده، المحكم والمحيط الأعظم (٨/ ٣٨٧)، مادة (ص.و.ب).

(٣) قال الملاَّ علي القارئ: «ما أحسن مقابلته بالمصاب! فإنه المخطئ في فعله عن صوب الصواب، لكونه أُصيب بآفةٍ في عقله الخارج عن دائرة أولي الألباب».
شرح الشفاء للقاضي عياض، ضبطه وصححه: عبد الله محمد الخليلي، دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت، ط١، ت١٤٢١هـ-٢٠٠١م (١/ ٥٦٢).

البشرية/ الاجتماعية.

في النصين السابقين -مثلاً- يرتبط الجنون في **الأول منهما** بالدلالة الشرعية، أي: المعصية دون النزوع عنها جزئيّاً بالاستغفار أو كليّاً بالتوبة (الإصرار على الإثّم)، وهو ما عُبر عنه الحديث بـ: «المقيم على معصية الله».

وفي الثاني تنحصر دلالة الجنون في المعنى الخُلُقي، وهو: **الكِبر** الذي تأتي الإشارة إليه من خلال بعض علاماته المائزة في المخيال العربي: يَضرِب بِمَنكِبَيه[١]- يَنظُرُ في عِطفَيه[٢]- يَتَمطَّى في مِشيَتِه[٣].

---

(١) كناية عن الاستخفاف بالشيء.

(٢) كناية عن إعجابه بنفسه، يقال: فلان ينظر في عطفيه، إذا كان معجباً بنفسه. ينظر: علي بن محمد الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل - تفسير الخازن (بهامشه تفسير محيي الدين بن عربي)، طبعة حسن الكتبي ومحمد الحلبي، ط١، ت١٣١٧هـ (٢/ ٣٢٦)، ومحمد بن دريد، جمهرة اللغة (٢/ ٩١٤)، مادة (ط.ع.ف).

(٣) في القرآن الكريم ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾ [القيامة: ٣٣]، قال المفسرون: يتبختر افتخاراً، وأصله يتمطط، فقلبت الطاء فيه ياء، ومنه المشية المطيطاء، وهي مشية يكون فيها خيلاء.
ينظر: يحيى بن زياد الفراء، معاني القرآن، عالم الكتب، لبنان - بيروت، ط٣، ت١٤٠٣هـ-١٩٨٣م (٣/ ٢١٢)، وعبد الله بن مسلم بن قتيبة، تفسير غريب القرآن، تحقيق: سيد أحمد صقر، دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت، ط١، ت١٣٩٨هـ-١٩٧٨م (ص٥٠١)، ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل - تفسير البيضاوي، إعداد: محمد المرعشلي، دار إحياء التراث العربي/ مؤسسة التاريخ العربي، لبنان - بيروت، ط١، ت١٤١٨هـ-١٩٩٨م (٥/ ٢٦٧).

كما يأتي الجنون في نص آخر يُروى عن النبي ﷺ وصفاً لنقيض الموصوفين به في الحديثين السابقين، وهذا جزء من طبيعة الجنون **المتحرّفة**، والنص هو:

«اذكر الله كثيراً؛ حتى يقولوا: مجنون»[١]

إنّ العلاقة بين الفرد والدين الإسلامي تنشأ على أساس من إعمال العقل. ولكنها تلتبس في مستوى من مستويات الشعور الجمعي/ العقل الجمعي[٢] -الذي يشكل وعي أكثر الناس- بحالة الجنون، لأنها تدفع الفرد إلى شيء من الاستقلالية (=العزلة)، وتصرفه عمَّا ينشغل به الكثرة ويطلبونه من أمور المعيشة وزينة الحياة الدنيا؛ فالاختلاف هنا راجع إلى أنّ الوصف بالجنون صادر من موقع ثقافي يرتهن **لقيم مغايرة لقيم النبوة**، وهو موقع: أكثر الناس الغافلين الساهين؛ مما جعله يتناقض مع الحديثين السابقين. لكن

(١) الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين (١/ ٦٨٣)، برقم(١٨٩١). ومحمد ابن حبان البستي، صحيح ابن حبّان بترتيب ابن بلبان (٣/ ٩٩)، برقم (٨١٧).

(٢) نقصد به: «الوحدة الذهنية للجماعة، التي تتمثل في المشاعر والمعتقدات والآراء وغيرها من التصورات الجماعية، أي: بعبارة أخرى: الثقافة الاجتماعية التي تسود الجماعة». وترجع فكرة نشأة العقل الجمعي - الجماعي إلى العلماء الفرنسيين، فقد آمن بها جوستاف لوبون ودوركايم وليفي بريل. ويحيل هذا المصطلح عند دور كايم إلى « نسق محدد من المعتقدات، والمشاعر العامة، لدى أعضاء المجتمع».

د. أحمد زكي بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان، لبنان - بيروت، ط١، ت١٩٧٧م (ص٣٩٠)، ود. مصلح الصالح، الشامل: قاموس مصطلحات العلوم الاجتماعية (ص٩٨، ١١٥).

استحضار **سبب الوصف بالجنون وموقعه**، يجعل **التناقض ظاهريّاً فقط**. فالثقافة بطبيعتها متغيرة ومتنوعة، ومن خلالها **تتأسس مواقع التلقي**، ويتشكل مستوى التفاعل وطبيعته؛ ومن ثمّ **يتعيَّن الجنون في مقابل المعروف- والمشهور**، الذي يُؤَوَّلُ بـ **(العقل)**. وإلا فإن ذكر الله -عند الذَّاكرين- دواءُ الجنون كما قال أبو مسلم الخولاني[١].

ومن المنسوب إلى النبي ﷺ: «**أكثر أهل الجنة البُلْه**»[٢]، فلا يُراد بالبُلْهِ الذين لا عقول لهم[٣]، لكن يراد به: البُله عندَ أهل الدنيا؛ لقلة

(١) «كان أبو مسلم الخولاني كثيرَ الذِّكر، فرآه بعضُ الناس، فأنكر حالَه، فقال لأصحابه: أمجنون صاحبُكم؟! فسمعه أبو مسلم، فقال: لا يا أخي، ولكن هذا دواءُ الجنون».
ينظر: عبد الرحمن بن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم، تحقيق: د. محمد أبو النور، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، مصر - القاهرة، ط٢، ت١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م (٣/ ١٢٩٣)، وأحمد البيهقي، الجامع لشعب الإيمان (٢/ ١٧٧-١٧٨).

(٢) محمد بن سلامة القضاعي، مسند الشهاب، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، لبنان - بيروت، ط٢، ت١٤٠٧هـ-١٩٨٦م (٢/ ١١٠)، برقم (٩٨٩، ٩٩٠)، أحمد البزار، البحر الزخار (مسند البزار)، تحقيق: عادل سعد، مكتبة العلوم والحكم، السعودية - المدينة المنورة، ط١، ت١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م (١٣/ ٣٢-٣٣)، برقم (٦٣٣٩)، والقاضي عياض، مشارق الأنوار على صحاح الآثار، المكتبة العتيقة/ دار التراث، تونس/ مصر - القاهرة، ط١، ت١٩٧٧م (٢/ ١٣٣)، والمتقي الهندي، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال (١٤/ ٤٦٧)، برقم (٣٩٢٨٣).

(٣) قال ابن الأثير: «فَأَمَّا الأَبلَه وَهُوَ الَّذِي لَا عَقلَ لَهُ فَغَيرُ مُرَادٍ فِي الحَدِيثِ».
النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ١٥٥).

obeikandl.com

اهتمامهم بما يهتم به أهلها، وهم أكياس في أمر الآخرة[١]، قال أبو جعفر الطحاوي: «ذكرت هذا الحديث لأحمد بن أبي عمران، فقال: معناه معنى صحيح. والبله المرادون فيه، هم: البله عن محارم الله عز وجل، لا من سواهم ممن به نقص العقل بالبله»[٢]. وسئل الأوزاعي عن معنى الأبله في الحديث؟ فقال: «الأعمى عن الشر البصير بالخير»[٣].

ولذلك قال الحسن البصري يصف من لقي من الصحابة: «أدركنا أقواماً لو رأيتموهم لقلتم مجانين! ولو رأوكم لقالوا شياطين!»[٤]. وسأل الخليفة عمر بن عبد العزيز السائب بن يزيد:

---

(١) ينظر: محمد بن فتوح الحميدي، تفسير غريب ما في الصحيحين: البخاري ومسلم، تحقيق: د. زبيدة محمد عبد العزيز، مكتبة السنة، مصر - القاهرة، ط١، ت١٤١٥هـ-١٩٩٥م (ص١٩١)، وإسماعيل الجوهري، الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية (٦/ ٢٢٢٧)، ومحمد بن منظور، لسان العرب (١٣/ ٤٧٧)، ومرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس (٣٦/ ٣٤٣)، مادة (ب.ل.هـ).

(٢) أبو جعفر الطحاوي، شرح مشكل الآثار، تحقيق وتعليق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، لبنان - بيروت، ط١، ت١٤١٥هـ-١٩٩٤م (٧/ ٤٣١-٤٣٢).

(٣) أحمد البيهقي، شعب الإيمان (٢/ ٤٩٩).

(٤) محمد عبد الرؤوف المناوي، فيض القدير شرح الجامع الصغير، دار المعرفة، لبنان - بيروت، ط٢، ١٣٩١هـ-١٩٧١م (٢/ ٧٩). قال المناوي: «مهما سمعت أمراً غريباً من أمور الدين جحده أهل الكياسة، أو في سائر العلوم؛ فلا ينفرنك جحودهم عن قبولها؛ إذ من المحال أن يظفر سالك طريق الشرق بما يوجد في الغرب، فكذا مجرى أمر الدنيا والآخرة فالجمع بين كمال الاستبصار في مصالح الدنيا والدين، لا يكاد يتيسر إلا لمن سخره الله لتدبير عباده في معاشهم ومعادهم، وهم الأنبياء المؤيدون بروح القدس. أما قلوب غيرهم فإذا اشتغلت بأمر الدنيا انصرفت عن الآخرة وعكسه».

obeikandl.com

«هل رأيتَ أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ يأتزر الرداء، أو يرتدي الرداء، ثم يخرج؟ قال: نعم! قال: لو صنع ذلك أحد اليوم لقيل: مجنون!..»[١]. وكذلك قول نافع مولى عبد الله بن عمر: «لو نظرت إلى ابن عمر؛ إذا اتبع أثر رسول الله لقلت: هذا مجنون»[٢]، و«قال: كان ابن عمر يتبع آثار رسول الله ﷺ ويهتم بها، حتى خيف على عقله»[٣]! وغيره كثير، وذلك راجع لاختلاف القيم التي يرجع إليها كل فريق. وهم عرب يجرون في استخداماتهم وتعبيرهم على مجرى العرب في كلامهم.

***

(١) أبو نعيم الأصفهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت، ط١، ت١٤٠٩هـ-١٩٨٨م (مصورة من طبعة دار السعادة، مصر - القاهرة، ط١، ت١٣٩٤هـ-١٩٧٤م) (٥/ ٣٦٠-٣٦١).

(٢) شمس الدين الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، لبنان - بيروت، ط١، ت١٤١٠هـ-١٩٩٠م (٥/ ٤٥٨-٤٥٩).

(٣) محمد بن المظفر البزاز، غرائب حديث الإمام مالك بن أنس، تحقيق: رضا الجزائري، دار السلف، السعودية - الرياض، ط١، ت١٤١٨هـ-١٩٩٧م (ص١٨٣-١٨٦)، برقم (١١٥، ١١٦).

obeikandl.com

الجنون فهم ثقافي/ المفارقة للنظام

قد قدمنا فيما سبق بعض الشواهد، التي تؤكد **حضور الوجه الثقافي** في تشكيل مفهوم الجنون، وقوة الخطابات السائدة في تشكيل المعرفة والقيمة، وشراستها العظيمة في المحافظة عليها بأسلحتها الخفية البليغة اللطف، ولا يكاد ينجو منها أيّ طارئ مخالف مهما كانت حجته، ومهما بلغ تماسكه. ويمكن أن أروي الأثر التالي، الذي يؤكد ما تراه الدراسة؛ فقد روي عن علي بن أبي طالب:

«أَنَّ رجلاً خاصم إليه أَبا امرأَته، فقال: زوَّجني ابنته، وهي مجنونة! فقال: ما بدا لك من جنونها؟ فقال: إذا جامعتها غشي عليها! فقال: تلك الرَّبُوخُ! لست لها بأَهل»[1].

يقصد أن تلك صفة حسن في المرأة، وليست صفة تستوجب

(١) ينظر: عبد الرحمن بن الجوزي: غريب الحديث، تحقيق: د. عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت، ط٢، ت١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م (١/ ٣٧٣)، وجار الله الزمخشري، الفائق في غريب الحديث (٢/ ٢٩)، والمبارك بن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ١٨٢).

الشكاية! فالرَّبُوخ من تَرَبَّخ في مشيه إذا استرخى، وربخت الإبل إذا فترت وكلت من السير في الرمل، وهو من الفتور والرخاوة[١]. قال الزبيدي: «أراد أن ذلك يحمد منها! وهي المرأة يُغشى عليها عند الجماع من شدّة الشهوة... وقيل: هي التي تنخر عند الجماع وتضطرب كأنها مجنونة»[٢]. فكأن الزوج ربط بين ما يعرض للمرأة من فتور واسترخاء، أو غشية عند (الملامسة) وبين ما يعرض للمجنون من ذلك، لأن العرب تجعل من أبرز صفات المجنون: التخلع، والفتور، والغشية.

وسواء أكان سؤال علي ﷺ للرجل عن حال المرأة التي حكم عليها بالجنون، نابعًا من إحساسه بسوء تصور الزوج وسوء حكمه، أم كان نابعاً من موقعه كقاضٍ، يستقصي أطراف الدعوى؛ فإن جواب الزوج سرعان ما تكشّف عن جهلٍ وخطأ. وذلك ما ينبئ عن تداخل كبير عند الزوج بين **لحظات الجنون ومرجعيته**، وتجليات **العقل المغايرة** لخبرته ومرجعيتها.

ونجد في نصوص كثيرة أنَّ **الشيءَ الغريب** يُتلقى أول **الأمر بصفته جنوناً**، ثم قد ينتهي بفعل أو وصف خارجي أو دوام **تأملٍ ومعاشرة** إلى كونه **عقلاً**؛ مما يؤكد كون الشذوذ، والخروج على المعهودٍ، والمستقر في وجدان الفرد -وهي مفاهيم ثقافية بالدّرجة الأولى- **جزءٌ من فهم العرب للجنون**، وأنه **ليس هنالك من مرجع موضوعي** محدد لما يمكن

(١) جار الله الزمخشري، أساس البلاغة (١/ ٣٢٩)، ومحمد بن منظور، لسان العرب (٣/ ١٧)، مادة (ر.ب.خ).

(٢) مرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس (٧/ ٢٥٤).

وصفه بالجنون؛ سوى كونه مروقاً، أو خروجاً على المعيار الثقافي للمجتمع، أو ما استقر في عرف الجماعة سواء أكان ذلك في العلوم والمعارف أم في الفنون والآداب أم في السلوك الاجتماعي. ومن جهة أخرى: **يجعل عملية (تلقي الشيء) في ذاتها، وليس الشيء نفسه، هي** الأساس الحقيقي لوصف الشيء بالجنون أو عدمه. كما أن المعيار المعتمد في تقييمه هو القيم السائدة المقبولة في المجتمع أو العرف.

ولعل هذا هو السبب المباشر في ثراء مصطلح الجنون، واتساع مجالات استخدامه ومستوياتها، وتنوع دلالاته في التراث العربي؛ بحيث تصح فيه تلك المقولة التراثية الرائجة، التي تزيده انطلاقاً وتحرراً: «**الجنون فنون**»[(١)]، **إذ الجنون بهذا الفهم:**

ممارسات فردية متحرِّفة، في مقابل العقل الذي هو ممارسة جماعية مقننة، تسعى إلى صبغ المجتمع بالانسجام والتناسق. أي: إنَّ الجنون خروج بشكل أو بآخر عن النظام[(٢)]، أوإزعاج للهيئة الاجتماعية- كما قال ذات مرة الطبيب إدوارد زاريفيان[(٣)].

---

(١) ينظر مثلاً: عبد الملك الثعالبي، خاص الخاص (ص٢٢٠)، ويتيمة الدهر في محاسن أهل العصر (٥/ ٢٥٧)، وعبد الوهاب السبكي، طبقات الشافعية الكبرى (٧/ ٨٢).

(٢) يقصد بالنظام: مجموع عناصر تؤلف كلا مستقلا، وتكون مبنية على علاقات ترابط فيما بينها.
ينظر: د. إميل يعقوب ود. بسام بركة ود. مي شيخاني، قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية، دار العلم للملايين، لبنان - بيروت، ط١، ت١٩٨٧م (ص٣٩٠).

(٣) ينظر: مارتين آلان رينو، زارعو الجنون أو المجتمع والجنون: مقابلة مع الدكتور=

وأسوق نصاً آخر يؤكد ارتباط الجنون بعناصر ثقافية خارجية أكثر منها عناصر داخلية ضمن ما يعرف بالجنون، والنص يرويه ابن شبّة بسنده في كتابه أخبار المدينة، قال:

«لبَّى علي ﷺ بالحج والعمرة جميعاً، وعثمان ﷺ يسير في موكبه. فقال رجل من موكب عثمان ﷺ: من هذا الذي يلبي؟! إنَّ هذا لأحمق أو مجنون!! فقالوا: هذا أبو تراب!! فسكتوا فما يدمدم إنسان»[1].

فالفعل (= التلبية) بنسك التمتع، في نظر متلقيه: الرجل الذي في موكب عثمان بالنظر إلى ما يعرفه من حال الناس **المجمعين** مع إمامهم عثمان بن عفان ﷺ على نوع واحد من النسك، وهو: الإفراد، أوالقران: حمقٌ أو جنونٌ لا شك فيه، لأنه خرج عن هذه الحال من الانسجام والاتفاق[2]!

= إدوارد زاريفيان، إثر نشر كتابه: (زارعو الجنون)، ترجمة: هذرشي عبد الباقي، مجلة دراسات عربية، سنة٢٥، العدد ٧-٨، أيار-حزيران/ مايو-يونيو ١٩٨٩م (ص١٣٣).

(١) عمر بن شبة النميري، تاريخ المدينة المنورة (٣/ ١٠٤٤).

(٢) هناك قول لبعض الصحابة ﷺ يذهب إلى أن نسك التمتع منسوخ، ولذلك يمنعون منه، وممن منع عمر بن الخطاب ﷺ وعثمان بن عفان ﷺ؛ فقد روي عن عمر أنه قال: «متعتان كانتا على عهد رسول الله ﷺ أنا أنهى عنهما، وأعاقب عليهما: متعة النساء، ومتعة الحج»، وروي عن عثمان ﷺ أنه قال: «متعة الحج كانت لنا وليست لكم». يعني أنه رخصة خاصة بالصحابة وليس تشريعاً للأمة. وكان مروان بن الحكم يقول: «شهدتُ عثمان وعليّاً، وعثمان ينهى عن المتعة، وأن يجمع بينهما، فلمّا رأى ذلك عليّ ﷺ أهلَّ بهما: لبيك بعمرة وحجة، وقال: ما كنتُ لأدع سنّةَ رسول الله ﷺ لقول أحد»، ويدل ذلك على أنّ عليّاً كان مخالفاً=

ولهذا جاءت التعبير مؤكَّداً بأكثر من مؤكِّد: (إنَّ، اللام)، فضلاً عما تحمله الجملة قبلها من استفهام يدل على: إنكار الفعل، أو التعجب والتوبيخ للفاعل على تجاوزه لحظة الانسجام والخروج على الاتفاق. لكن الإنكار والتعجب لم يلبثا أن يتلاشيا، فيخفت صوت الاتهام، ومن ثمَّ تنتفي تهمتا الجنون والحمق؛ حين علم الرّجل من حاشية عثمان أن الملبي فوق تحكيم عرفه الضيق، وفهمه الناقص. ولو كان الملبي غير علي رضي الله عنه لقامت التهمة واستمر الإنكار!

ومثل ذلك كثير في كتب الأخبار والسير: فقد وَصَف أهلُ أويس القرني أويساً بالجنون، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يطلبه مدّة خلافته، ويسأل عنه الحجيج. ولمّا سأل عنه عمه: «قال: وما تسأل عن ذلك يا أمير المؤمنين؟! فو الله **ما فينا أخف منه، ولا أجن منه، ولا أهوج منه! فبكى عمر، وقال: بك لا به!** سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يدخل الجنة بشفاعته مثل ربيعة ومضر»[1]. فلما عرفوا مكانته وشهادة النبي ﷺ له بالغيب، طلبوه ليستغفر لهم، وعدوه وليّاً[2].

= -في هذه المسألة- ما عليه عامة الناس في العهدين العمري والعثماني، ولعلَّ هذا هو مصدر تعجب الرجل.

لمراجعة النصوص السابقة، ينظر: البخاري، الجامع الصحيح (٢/ ٥٦٧)، وأحمد ابن حنبل، المسند (١/ ١٣٥)، أبو بكر الجصاص، أحكام القرآن (٣/ ١٠٢)، و(٥/ ٧٥)، السرخسي، المبسوط (٤/ ٢٧)، وابن رشد القرطبي، بداية المجتهد ونهاية المقتصد (١/ ٣٣٣-٣٣٦).

(١) المتقي الهندي، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال (١٤/ ١٣-١٤)، برقم (٣٧٨٣٢).

(٢) ينظر خبره: عبد الرحمن بن الجوزي، المدهش، تحقيق: مروان قبّاني، دار الكتب=

ونجد أهل بستان يصفون أحدَ عابري السبيل بالنظر إلى: رثاثة حاله، وغرابة سلوكه؛ الذي لم يألفوه بالجنون، فلمّا عرفوا أنه: إبراهيم بن أدهم عدلوا عن وصفه بالجنون إلى نعته بالولي والزاهد، ورجوا بركة دعوته[1]!

وفيما ساقته الدراسة من خبر ابن السراج، ووصفه بأنه: **عَقَلَ النَّحوَ بعد أن كان مجنوناً**، ما يمكن أن نستشف منه الخيط الذي يفصل بين عالمي العقل والجنون -وهو بحسب ما ظهر لنا- يكمن في قدرة العقل نفسه (بوصفه نظاماً) على قبول أو فهم ما عرض له أو نظر فيه، وقدرته على تنظيمه وضبطه؛ إذ لا يتصور أبداً أن يُغير ابن السراج في بنية النحو العربي أو قوانينه، وكل ما هنالك أنه

= العلمية، لبنان - بيروت، ط٢، ت١٤٠٥هـ-١٩٨٥م (ص٤٢٧)، وأبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، دار المعرفة، لبنان - بيروت، ط٢، ت١٤٠٢هـ-١٩٨٢م (٣/ ٢٢٢-٢٢٤)، وشمس الدين الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، لبنان - بيروت، ط١، ت١٤١٠هـ-١٩٩٠م (٣/ ٥٥٥-٥٥٩)، والمتقي الهندي، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال (١٤/ ٨-١٤).

(١) ينظر: أبو نعيم الأصفهاني، حلية الأولياء وطبقات الاصفياء (٧/ ٣٩٢-٣٩٣). مما يجري على ذلك النص الآتي الذي يورده أبو جعفر الطحاوي في كتابه شرح معاني الآثار: «عن شعبة عن مغيرة قال: سألت إبراهيم عن الرجل يبدأ بيديه قبل ركبتيه إذا سجد؛ فقال: «أو يضع ذلك إلا أحمق أو مجنون».
شرح معاني الآثار، تحقيق: محمد زهري النجار، دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت، ط١، ١٣٩٩هـ (١/ ٢٥٦)، حديث رقم (١٤٢١)، إذ قد يفعل ذلك من ليس بأحمق ولا مجنون، لمرض أو كبرٍ أو عادة، وقد رأيت بعض الأفاضل يصنعه لكبر سنه.

قد عمل على جعله شيئاً منظماً منضبطاً بأصول تلمّ شعثه، وتؤلف بين متناثره، وتطمّن نفور آبده؛ بحيث تجعله مستأنساً مما يعني أن الجنون لم يكن شيئاً حالاً في النحو بقدر ما كان ماثلاً **في النظر إليه، وفي القدرة على فهمه**. فإن استطاع المرء (**تنميط**) ما يراه أو يسمعه، وفهِمَهُ فهو (**عقل**)؛ وإن لم يستطع فهو (**جنون**)! ولعلّ الجملتين التاليتين تساعدان على فهم ذلك:

- كان كل من شعبة بن الحجاج وأحمد بن حنبل يقولان:

«ما رأيت أحداً قط يعدو إلا قلت: مجنون أو صاحب حديث»[1].

- وقال الجاحظ:

«سمع الحجاج امرأة من خلف حائط تناغي طفلاً؛ فقال: مجنونةٌ أو أمُّ صبيٍّ»[2]**!**

فالحجاج سمع كلام امرأة من دار قوم وفي كلامها تخليط وهذيان، فكان هذا عنده دليلاً عل جنونها، إلا أنه اقترح حلاً

(١) الخطيب البغدادي، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السّامع، تحقيق: د. محمود الطحان، مكتبة المعارف، السعودية - الرياض، ط١، ت١٤٠٣هـ-١٩٨٣م (١/ ١٥٢)، الخطيب البغدادي، تاريخ مدينة السلام (تاريخ بغداد) (١٦/ ٤٧٧)، ترجمة رقم (٧٠٦٢).

(٢) البيان والتبيين (٣/ ٢٢٤). وقد روى الخبر نفسه في صدر رسالة له عن «المعلمين»، حيث قال: «وسمع الحجاج - وهو يسير - كلام امرأة من دار قوم، فيه تخليط وهذيان، فقال: مجنونة، أو ترقص صبياً!».
ينظر: الجاحظ، الرسائل (٣/ ٣٧).

obeikandl.com

آخـر يمكن مـن خلاله قبول كلامهـا على علاَّتـه دون إخراجها من **قيـد العقلاء**؛ وذلك بدفعها إلى نمط مـن الأنماط، التي يُمكن تَقَبُّلها (عاقلـةً) من خلالـه، وهو كونها أمّـاً تناغي طفلهـا وترقصه، يقول الجاحظ:

«ألا تـرى أن أبلـغ الناس لسـاناً، وأجودهم بيانـاً وأدقهم فطنة، وأبعدهـم رويّـة، لو ناطق طفـلاً أو ناغى صبيـاً، لتوخى حكاية مقادير عقول الصبيان، والشبه لمخارج كلامهم، وكان لا يجد بداً من أن ينصرف عن كل ما فضله الله به بالمعرفة الشريفة، والألفاظ الكريمة. وكذلك تكون المشاكلة بين المتفقين في الصناعات»[١].

وكذلـك الأمر بالنسـبة لشـعبة بن الحجاج وأحمد بـن حنبل فلا حاجـة تدعـو المرء للعـدو في أزقـة المدينة (بغـداد)؛ حيـث لا غارة يخشى منها، ولا صيد يطلب، ولا سبق! ولا يفعل ذلك إلا مجنون لا يُسـأل عن عمله، أو طالب علم يعدو ليحصِّل روايةً أعلى سنداً عن شيخ يخشـى فواتها عليه، أو ليقعد أولاً فيستشرف شيخه عن كثب، ويكون سماعه من قرب[٢].

---

(١) رسائل الجاحظ (٣/ ٣٧).

(٢) علق د. محمود الطحان، محقق كتاب «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السّـامع»؛ فقـال: «المـراد بذلـك العـدو في الأماكـن العامة، وهـذا لا يفعلـه إلا مجنون، أو شـخص مشـغوف بحب الحديث والحرص على حضور مجالسـه، فربما عدا لئلا يفوته المجلس».
ينظر: (١/ ١٥٢)، الهامش رقم: (٢).

وفي بيت القُطامي التالي نجد هذا التردد بين عالمي الجنون والعقل:

يتبعـن مائِـرة العينـين تحسـبُها

مجنونة أو ترى ما لا ترى الإبِلُ[١]

فالإبل تتبع ناقته التي يصفها بأنها سامية العينين تنظر إلى الأماكن البعيدة، قوية لم يكسرها طول السير، ذات فرط في النشاط والحركة. لكنـه يتسـاءل عن سر نشـاطها، وما تبـدو فيه من المـرح والعزيمة، ويجعل ذلك مسـبباً عن الجنون، أو عن سـبب آخر يفهمه العقل غير الجنـون، وهـو طلب الفوز بحـظ ما، أو طلب النجـاء من شيء تراه يتبعهـا دون أن تـراه بقية الإبـل! وطلب الفوز بمرغـوب أو النجاة مـن مرهوب، **نمـط عقلي**؛ لأن في الأول إسـعاد النفـس، وفي الثاني عصمتها من العطب.

وهذا يعني أن المسـألة -في كثيرٍ من الأحيان- ليسـت بأكثر من نسـبة الشيء من موقـع مباين -وهو حضرة العقـل هنا- إلى حظيرة الجنون، وهو ما تختزله مقولة ثقافية **كلِّيّة الدّلالة** لابن الجوزي: «**كل ما نسب إلى الجنون فهو جنون**»[٢]، فنحن إذن لا نتحدَّث **عن حقيقة**

(١) أبو زيد القرشي، جمهرة أشـعار العرب في الجاهلية والإسلام، تحقيق: ومحمد علي البجـاوي، نهضة مـصر، د. ط.ت، (ص٦٥٠)، محمد بن طباطبا، عيار الشـعر. تحقيـق: عبد العزيز المانـع، دار العلـوم للطباعة والنشر، السـعودية - الرياض، ط١، ت١٤٠٥هـ- ١٤٠٥، (ص٩١).

(٢) التذكـرة في الوعـظ: تحقيـق: طـه عبد الـرؤوف سـعد، دار ابـن خلـدون، مصر - الإسكندرية، د. ط.ت (ص١٥٢).

محـدَّدة بقـدر ما نتحدّث عن نسـبة شيء إلى شيء من موقع مغاير، أو تلقٍّ للآخر بمفهوم ثقافي بالنظر إلى معيار متحكّم/ سلطة.

هـذا المعيار صاغـه بالضرورة العقل (في مرحلـة وظرف وحاجة) من خلال قوانينه وأعرافه المتناسـلة، التي بثها في المؤسسات المجتمعية والممارسـات الثقافيـة التي تنتظم حيـاة العربي، وتشـكل وعيه وقيمه، في سلسـلة مـن التراكمات المتجانسـة؛ لتسـبغ عـلى المجتمـع حالة من الانسـجام والتوافـق والهويـة الواحـدة في مواجهة التشـيؤ والتفكك والاضطـراب والاختـلاف، والجنـون لا يظهـر في العـادة إلا في هذه المنطقـة الحادة في علاقته مع النظام السـائد! فالشيء لا يكون جنوناً في ذاته أومن ذاته! ولكن الآخر من واقع وعيه وقيمه هو الذي يسبغ عليه وصمة الجنون؛ **فالنسـبة فعل ثقافي**. إذ يصبح الجنون بدون التفاعل (ا لتعجب – الرفض – الإنكار – الإقصـاء) حالة مفرّغة من معناها؛ **مما يعني أن الحكم بالجنون شيء من اختصاص الثقافة بالدرجة الأولى.**

ومـا دام الجنون **صنيعة ثقافية بالدرجـة الأولى**، أي أنه يقوم على **النّسبة** –كما يقول ابن الجوزي– فإنه يمكن أن يكون –من **وجهة نظر أنطولوجية**– تارة جنوناً ويمكن أن يكون تارةً عقلاً؛ فالشيء الواحد يكون غيره بمقدار ما لا يكون نفسه والعكس بالعكس. وبهذا المعنى يكون كل واحد من معنيي الجنون (المرضي الخاص – الثقافي) وجهاً ثانياً للآخر، بل أكثر من ذلك إذ يُمكن جعل المصطلح نفسـه وجها آخر لنقيضه، أي وجهاً للعقل: أليس الجنون، وهو انحراف وتجاوز وغرابة وغموض وتمرّد: تتبّعاً/ إتباعاً لمنطق آخر، وأن ما سواه عبثٌ

وهذيان؟! أليس العقل، وهو اتباعٌ لتعاليم قيمية ومعرفية مقدمة، وإعراضٌ عن حقائق يعرفها ويمجدها ثمَّ يُعطلها، أليس هو بذلك جنوناً من «منطق» مغاير؟!

إنّ غياب الجانب الموضوعي في وصف الجنون نفسه إلا من خلال التلقي الذي يحاول أن يتفرَّسه في حركته الدائبة متوسلاً إلى ذلك ببعض صفات خارجية ومظاهر فسيولوجية وأخلاقية ومعرفية وسلوكية؛ يتم تلقيها وتصنيفها بتباين شديد تحت مظلة الجنون؛ **يجعل من الجنون بالضرورة حالةً متفلتةً غير محددة في ذاتها**.

ولا ريب فهي ممارسات فردية شاذّة، متجددة يصعب توقّع حدٍّ لها؛ تشرع لنفسها بعيداً عن عوالم العقل ومواضعاته المعترف بها، ومن ثَمَّ يصعب التنبؤ بها وحصرها[1]؛ ومن ثَمَّ- أيضاً- جرى إطلاق اسم الجنون بشيء من التجوّز، أو بشيء من الاضطراب -أحياناً- على أشياء كثيرة متباينة، هي إلى الاختلاف بل إلى التناقض -أحياناً- أقرب منها إلى الائتلاف.

ممَّا يجعل من «الجنون» في وجهه الثقافي توظيفاً متحيزاً في أكثر

(١) عبر عن هذا الشاعر فقال:

إني لآمن من عدوٍّ عاقلٍ وأخاف خلاً يعتريه جنونُ
والعقل فن واحد وطريقه أدرى وأرصد والجنون فنونُ

ينظر: محمد بن عرب شاه، فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء، طبعة الآباء الدومنكيِّين، العراق - الموصل، ت١٨٦٩م (ص٣٩١)، والأب لويس شيخو اليسوعي، مجاني الأدب في حدائق العرب، (٣/ ١٢٩)..

الأحيان لصالح **النموذج العالم/ المؤسسي** أيّا كان مجال حضوره وفاعليته (معرفيّاً، سياسيّاً، اجتماعيّاً)، بصفته: سلاحاً لغويّاً، وموقفاً اجتماعيّاً، وتحيزاً معرفيّا، وقهراً سياسيّاً، يستبطن السلطة أيّاً كان مصدرها (معرفيّاً، سياسيّاً، اجتماعيّاً) **لعزل المخالف/** المتجاوز/ المستغلق **ونفيه**؛ خارج دائرة العناية والاشتغال؛ **أكثر من كونه وصفاً حقيقيّاً لنقص في الكفاءة.**

الجنون بما يحمله من معارضة ومغايرة واختلاف حالة ينبغي أن تظل معزولة عن الحضور من وجهة نظر المؤسسة، ومغيبة عن التغيير الذي لا يستحضر المتراكم والموجود والرّموز؛ حتى لا تفككها وتبرز تناقضاتها، وحتى يحافظ البناء الثقافي على تناسقه وانسجامه الظاهر، وحتى تحتفظ خطاباته بقوتها وفاعليتها النابعة من تماسكه وسلطته. فـ«الجنون» والـ«المجنون» يُجعل منهما أداةً مركبة تستبعد ما لا يتفق مع السياقات السائدة (الرئيسة والمهيمنة) في فضاءات السياسة والفكر والفن والاجتماع والسلوك.

والعجيب أن المؤسسة العالمة برموزها ومفاهيمها وخطاباتها الصاخبة، هي المخوّلة بإنتاج الجنون! وهي في الوقت نفسه التي تمارس على خطابه الهيمنة وآليات الإقصاء. هذه المدونة المنتجة لـ«**الجنون**» والمشتغلة والمنشغلة باستبعاد «**المجنون**» و«**خطابِه**» ستكون محلَّ عنايتنا في الصفحات التالية.